

تعزير الحرية الثقافية المنضبطة

أ.د. لؤلؤة بنت عبد الكريم القويﻻي *

المخلص:

ينطلق هذا البحث من محور ضمانات حماية الهوية الثقافية والخصوصية المجتمعية، والتحديات والإشكاليات والآفاق التي يطرحها هذا الواقع النوعي في كافة المجالات الرئيسية لحياة أبناء لغة الضاد، وذلك في ظل العولمة والثورة الهائلة في مجالي الاتصالات والمواصلات وتحول العالم إلى قرية صغيرة تتفاعل تكاملاً وتناقضاً سلمياً وحرماً، في مختلف القضايا التي تواجهها البشرية، ومن المستحيل علينا سبر أغوار الهوية الجديدة وتداعياتها بعيداً عن التفاعلات الحيوية مع القضايا العربية في ظل الأوضاع الدولية الراهنة.

ومن هنا صارت التحديات تفرض نفسها على مجتمعنا، وأصبحت تتطلب بلورة رؤية خاصة نستطيع من خلالها الحفاظ على هويتنا الثقافية، وفي الوقت نفسه الانفتاح على العالم للإفادة من نتائج المعرفة بجميع أشكالها دون أن نفقد شيئاً من هويتنا. وتظهر أهمية الموضوع في أن تمسك الفرد بحريته المنضبطة لا يعني الانغلاق على الذات، بل هو وسيلة للانفتاح وشرط أساسي للتعرف على ثقافته، وبالتالي أصبحت تعاليم الدين الإسلامي السمح وتعلم اللغة شرطين لتعزير الهوية الثقافية والحفاظ عليها، إذ إن الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم، هي القدر الثابت والجوهري والمشارك من السمات والسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، وهو ما سعى البحث لتبينه.

وقد استنتجنا بأن الحرية المنضبطة قرينة الإبداع والخلق، ولعل مؤشر قمع الحرية داخل المجتمع يكون سبباً واضحاً في تكييف الإبداع بكل مجالاته سواء قبل ممارسته أم بعدها مباشرة، بمعنى أن المبدع عندما يعرف بحكم خبرته ومعرفته وتجربته الخاصة أن إبداعه وعمله سوف يلاقين منعاً ما أو موقفاً معادياً، فإنه يمارس على نفسه نوعاً من الرقابة الذاتية، ويمنع نفسه من ممارسة حريته الكاملة في إبداع يتأثر بمؤشر القمع والمنع، فيخرج ناقصاً وضعيف البنية. ولذلك فإننا نجد في بعض المجتمعات انتشار مؤشرات القمع والمنع والحظر والمصادرة في التعاطي مع الإبداع بكل تجلياته.. فكان

* أستاذ السنة النبوية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

لابد من توجيه أنظار المعنيين بالأمر لأهمية دور الحرية الثقافية في تنمية الهوية الثقافية وتعميق الانتماء، وتحديد المهام والإجراءات المنوطة بالمجتمع في تعزير الحرية الثقافية المنضبطة.

كلمات دالة:

الحرية المنضبطة، الهوية، الحرية، الثقافة، أزمة الهوية، معززات الحرية، الضوابط الشرعية

المقدمة:

الحمد لله محرر الإنسان من ظلمات العبودية إلى نور الحرية، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه الكرام الميامين الأبطال حماة حقوق الإنسان في كل مكان... وبعد:

الهوية من أهم السمات المميزة للمجتمع، فهي التي تجسد الطموحات المستقبلية في المجتمع، وتبرز معالم التطور في سلوك الأفراد وإنجازاتهم في المجالات المختلفة، بل تنطوي على المبادئ والقيم التي تدفع الإنسان إلى تحقيق غايات معينة، وعلى ضوء ذلك؛ فالحرية الثقافية لمجتمع ما لا بد وأن تستند إلى أصول تستمد منها قوتها، وإلى معايير قيمية ومبادئ أخلاقية وضوابط اجتماعية وغايات سامية تجعلها مركزاً للاستقطاب العالمي والإنساني⁽¹⁾، كما شغلت قضية الحرية الثقافية بال المفكرين والعلماء والمتقنين والقادة في دول العالم، خاصة في عصرنا الحالي الذي ترك أثراً نفسية نتج عنها تحول في الهوية⁽²⁾.

إن الحرية هي إكسير الحياة وانطلاقة الروح، وهي الأمل الذي تسعى إليه شعوب الأرض كافة، وتتوق إليه كل نفس بشرية، حتى ولو لم تكن تعرف كيف السبيل إلى تحقيق ذلك. وحيث إن الحرية كلمة عميقة المغزى واسعة المضمون، تكاد الإنسانية لا تصل إلى تعريف محدد لها مثل السياسة تماماً؛ لأن كلاً منهما يتعلق بمعيشة الإنسان وخطواته في كل لحظة من لحظات الحياة. ويقول العلماء بأن حرية الإنسان مقدسة كحياته سواء، وهي الصفة الطبيعية التي بها يولد الإنسان، للحديث: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة»⁽³⁾ وهذه الحرية مستصحة مستمرة ليس لأحد أن يعتدي عليها، كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : «متى استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». ويجب توفير الضمانات لحماية الأفراد، ولا يجوز تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة.

(1) عبد الودود مكرم، مناهج التعليم والهوية الثقافية، المؤتمر العلمي العشرون لجامعة عين شمس (مدخل لتحديد دور التعليم العالي في بناء مستقبل الأمة العربية)، المنعقد في 30 - 31 يوليو 2008، جامعة عين شمس، مجلد 4، القاهرة، ص 1375.

(2) محمد أحمد محمد إسماعيل، برنامج مقترح لتفعيل دور أنشطة نادي الطفل لتأصيل الهوية الثقافية لمواجهة التحديات الحضارية بمراكز إعلام محافظة قناة السويس، مجلة كلية تربية عين شمس، العدد 30، ج 3، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006، ص 373.

(3) صحيح البخاري، ج 5، ص 182. وفي صحيح مسلم، ج 13، ص 127، بلفظ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء».

لذا فالحرية الثقافية المنضبطة تحتاج إلى معززات لتتبلور الرؤية الخاصة، ونستطيع من خلالها الحفاظ على هويتنا الثقافية، وفي الوقت نفسه الانفتاح على العالم للإفادة من نتائج المعرفة بجميع أشكالها دون أن نفقد شيئاً من هويتنا، ونعمل بحريتنا المنضبطة.

مشكلة البحث:

يعد تأصيل الهوية الثقافية من أهم سبل تشكيل الحرية الشخصية، وهنا يبرز دور التربية في مواجهة مظاهر الخلل الثقافي التي من شأنها تشويه وإضعاف هذه الهوية، فالحفاظ على الهوية الثقافية - وخاصة في ظل التحولات العالمية - يستوجب غرس وتنمية شعور قوي بالهوية لدى الناشئة والشباب على حد سواء، فقد ظهرت أنماط حياتية جديدة، وبرزت مجموعة من القيم العالمية مقابل القيم المحلية، وتنامى انتشار اللغات العالمية مقابل اللغة المحلية، وغيرها من التحديات التي فرضت نفسها على هويتنا الثقافية، وألقت بثقلها على المجتمعات العربية، وبسبب كثافة وخطورة الاختراق الثقافي الذي يتعرض له نسق القيم والثقافة بصفة عامة في المجتمع العربي، كما أن المؤسسات التربوية التقليدية وخاصة الأسرة والمدرسة، لم تعودا قادرتين - وفق صيغ أدائهما الحالية - على حماية الأمن الثقافي للمجتمع، والإيفاء بحاجات أفراد من القيم والرموز والمعايير والمرجعيات التي أصبحت تصاغ خارج حدود الثقافة الوطنية، الأمر الذي ترتب عليه مساس بالأمن الثقافي ومكونات الهوية، بحيث صارت المؤسسات التربوية والتعليمية والإعلامية - بشكلها التقليدي الحالي - غير قادرة على القيام بوظائفها للحفاظ على الهوية الثقافية. ومن هنا صارت التحديات تفرض نفسها على مجتمعنا، وأصبحت تتطلب بلورة رؤية خاصة نستطيع من خلالها الحفاظ على هويتنا الثقافية، وفي الوقت نفسه الانفتاح على العالم للإفادة من نتائج المعرفة بجميع أشكالها دون أن نفقد شيئاً من هويتنا⁽⁴⁾.

إذن فتمسك الفرد بحريته المنضبطة لا يعني الانغلاق على الذات، بل هو وسيلة للانفتاح وشرط أساسي للتعرف على ثقافته، وبالتالي أصبحت تعاليم الدين الإسلامي السمح وتعلم اللغة شرطين لتعزيز الهوية الثقافية والحفاظ عليها.

أسئلة البحث:

وفي ضوء ما سبق يمكن تحديد مشكلة الدراسة في التساؤل الرئيسي التالي: كيف يمكن أن نعزز الحرية الثقافية المنضبطة؟ ويتفرع عن هذا السؤال الرئيسي الأسئلة الفرعية

(4) هاني محمد يونس موسى، دور التربية في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع العربي، بحث غير منشور، كلية التربية، جامعة بنها، د.ت، مصر.

التالية: ماهي مفاهيم ومظاهر الهوية، ومقومات الهوية الثقافية العربية؟ ماهي العوامل التي أدت إلى أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي؟ ماهي مظاهر أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي؟ ماهو مفهوم الحرية، وجوهرها، وضوابطها؟ ماهي آثار وثمار حرية الرأي على الأفراد والأمم؟ ماهي معززات الحرية الثقافية المنضبطة؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذه الدراسة في أن الكشف عن مقومات ومنابع الهوية الثقافية العربية والإسلامية وترسيخ محتوياتها يعد أمراً لا بد منه للحفاظ على هذه الهوية التي تتمتع بسمات تميزها عن غيرها.

كما تتمثل أيضاً في أنها تسعى للإسهام في لفت نظر المعنيين بشؤون المجتمع، وتقديم مقترحات لهم لبناء إستراتيجية عربية تساعد في تعزيز الحرية الثقافية المنضبطة والهوية الثقافية والحفاظ عليهما.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى العمل على تأصيل الحرية الثقافية، والهوية الثقافية، بما يتفق مع ثقافة المجتمع، بحيث يؤدي ذلك إلى تجاوز التحديات التي تضعف تلك الهوية، كما يسعى إلى تنمية الوعي بالحرية الثقافية المنضبطة، وبالهوية الثقافية وأهميتها لدى الشباب العربي، وإلى بيان آثار وثمار حرية الرأي على الأفراد والأمم. ويهدف أيضاً إلى إبراز دور معززات الحرية الثقافية المنضبطة وتوجيه أنظار المعنيين بالأمر لأهمية دور الحرية الثقافية في تنمية الهوية الثقافية وتعميق الانتماء، من خلال تحديد المهام والإجراءات المنوطة بالمجتمع في تعزيز الهوية الثقافية.

منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي في رصد أبرز مقومات الهوية الثقافية، وتحليل العوامل التي ربما تكون مسؤولة عن أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي، والوقوف على أبرز مظاهرها في إطار من التفسير والتحليل، ثم التنبؤ بمعززات الحرية الثقافية المنضبطة في التدعيم والحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع العربي.

المبحث الأول

مفاهيم الهوية الثقافية ومقومات الهوية

من المعلوم بالضرورة أنه بدون هوية اجتماعية وثقافية يغترب الأفراد عن بيئاتهم الاجتماعية والثقافية، بل وعن أنفسهم تماماً، وبدون تحديد واضح للآخر لا يمكنهم تحديد هوياتهم الاجتماعية والثقافية، ويشير «برهان غليون» إلى أنه: «لا تستطيع الجماعة أو الفرد إنجاز مشروع مهما كان نوعه أو حجمه دون أن تُعرّف نفسها وتحدد مكانها ودورها وشرعية وجودها كجماعة متميزة، فقبل أن تنهض لابد لها أن تكون ذاتاً⁽⁵⁾».

المطلب الأول

مفاهيم الهوية الثقافية ومقوماتها

من الملاحظ أن الكتابات العربية والأجنبية تزخر بالكثير من البحوث والدراسات التي تناولت موضوع الهوية، مما قد يوقع الباحث في نوع من اللبس عند تناول هذا الموضوع، وتأتي المعضلة من صعوبة إيجاد تعريف محدد لمفهوم الهوية، بسبب تعدد المدارس الفكرية التي تناولت الموضوع، بالإضافة إلى سعته وشموليته، حيث تشارك في تكوينه متغيرات متعددة، وخاصة المتغيرات المجتمعية التي تطرأ وتؤثر في الفكر، فالهوية مفهوم له دلالة اللغوية واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية.

الفرع الأول

مفاهيم الهوية الثقافية

أولاً- الهوية لغة:

بالنسبة لمفهوم «الهوية» في اللغة نجد أن المعجم الوسيط أشار إلى أن: «الهوية في الفلسفة حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره، أو هي بطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله، وتسمى البطاقة الشخصية أيضاً⁽⁶⁾». أما في اللغة الإنجليزية فتعني تماثل المقومات أو الصفات الأساسية في حالات مختلفة وظروف متباينة، وبذلك تشير إلى الشكل التجميعي أو الكل المركب لمجموعة من الصفات التي تكون الحقيقة الموضوعية لشيء ما، والتي بواسطتها يمكن معرفة هذا الشيء وغيره على وجه

(5) برهان غليون، اغتيال العقل، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990، ص32.

(6) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الصحوة، القاهرة، د.ت، ص 1039.

التحديد⁽⁷⁾. وبناء على ذلك استخدم اللفظ ليدل على الإحساس العميق والمتواصل للإنسان بنفسه وماضيه وحاضره ومستقبله والمستمد من مشاعره ومعتقداته وأفكاره.

ثانياً- الهوية اصطلاحاً:

يلاحظ أن تعريف الهوية في نظر المفكرين لا يختلف كثيراً من أحدهم للآخر، وإن كان يتصف بأنه أكثر تحديداً بالنسبة لبعضهم دون الآخر؛ لأنه يرتبط بالبعد الثقافي أو الاجتماعي للمصطلح، فقد عرّف سعيد إسماعيل علي الهوية بأنها: «جملة المعالم المميزة للشيء التي تجعله هو، بحيث لا تخطئ في تمييزه عن غيره من الأشياء، ولكل منا - كإنسان - شخصيته المميزة له، فله نسقه القيمي ومعتقداته وعاداته السلوكية وميوله واتجاهاته وثقافته، وهكذا الشأن بالنسبة للأمم والشعوب»⁽⁸⁾.

كما أشار محمد عمارة إلى أن: «هوية الشيء ثوابته التي لا تتجدد ولا تتغير، وتتجلى وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانتها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة، فهي كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز بها عن غيره وتتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس، إنها الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والتي عن طريقها يتعرف عليه الآخرون باعتباره منتبياً لتلك الجماعة»⁽⁹⁾. ويرى محمود أمين العالم أن: «الهوية ليست أحادية البنية، أي لا تتشكل من عنصر واحد، سواء كان الدين أو اللغة أو العرق أو الثقافة أو الوجدان والأخلاق، أو الخبرة الذاتية أو العلمية وحدها، وإنما هي محصلة تفاعل هذه العناصر كلها»⁽¹⁰⁾. وأشار أحد الباحثين إلى أن الهوية هي: «مفهوم اجتماعي نفسي يشير إلى كيفية إدراك شعب ما لذاته، وكيفية تمايزه عن الآخرين، وهي تستند إلى مسلمة ثقافية عامة، مرتبطة تاريخياً بقيمة اجتماعية وسياسية واقتصادية للمجتمع»⁽¹¹⁾. كما

(7) رشدي أحمد طعيمة، الثقافة العربية الإسلامية بين التأليف والتدريس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص 35.

(8) سعيد إسماعيل علي، التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين، المؤتمر التربوي الأول لكلية التربية والعلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس (اتجاهات التربية وتحديات المستقبل)، 7 - 10 ديسمبر 1997، سلطنة عمان، ص 95.

(9) محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، سلسلة «في التنوير الإسلامي»، العدد 32، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت، ص 6.

(10) محمود أمين العالم، الهوية مفهوم في طور التشكيل، مؤتمر «العولمة والهوية الثقافية»، لفترة 12 - 16 أبريل 1998 م، سلسلة أبحاث المؤتمرات رقم 7، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ص 376.

(11) محمد إبراهيم عيد، الهوية الثقافية العربية في عالم متغير، مجلة الطفولة والتنمية، العدد 3، المجلد 1، =

أن الهوية ترتبط بالانتماء، فقد عرّفها البعض بأنها: «مجموعة من السمات الثقافية التي تتصف بها جماعة من الناس في فترة زمنية معينة، والتي تولد الإحساس لدى الأفراد بالانتماء لشعب معين، والارتباط بوطن معين، والتعبير عن مشاعر الاعتزاز، والفخر بالشعب الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد»⁽¹²⁾.

ومن المفاهيم التي قدمت للهوية الثقافية، ما تبنته منظمة اليونيسكو الذي ينص على أن: «الهوية الثقافية تعني أولاً وقبل كل شيء أننا أفراد ننتمي إلى جماعة لغوية محلية أو إقليمية أو وطنية، بما لها من قيم أخلاقية وجمالية تميزها، ويتضمن ذلك أيضاً الأسلوب الذي نستوعب به تاريخ الجماعة وتقاليدها وعاداتها وأسلوب حياتها، وإحساسنا بالخضوع له والمشاركة فيه، أو تشكيل قدر مشترك منه، وتعني الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية، وتعد بالنسبة لكل فرد منا نوعاً من المعادلة الأساسية التي تقرر - بطريقة إيجابية أو سلبية - الطريقة التي ننتسب بها إلى جماعتنا والعالم بصفة عامة»⁽¹³⁾.

وذكرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) أن الهوية الثقافية هي: «النواة الحية للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد السلوك ونوع القرارات والأفعال الأصيلة للفرد والجماعة، والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والإبداع، مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة وميزاتها الجماعية، التي تحدت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجية المشتركة وطموح الغد»⁽¹⁴⁾. وهذا التعريف يوضح العلاقة بين الانتماء وبين الهوية، حيث إن كلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به، فالإنسان عندما يعرف أن هويته ترتبط بهوية المجتمع الذي يوجد فيه، فإن هذا يجعله يتمسك ويرتبط بمجتمعه.

= خريف 2001، المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة، ص 110. http://org.arabccd.www/322/0000/files

(12) إسماعيل الفقي، إدراك طلاب الجامعة لمفهوم العولة وعلاقته بالهوية والانتماء، المؤتمر القومي السنوي الحادي والعشرون للجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس بعنوان «العولة ومناهج التعليم» ديسمبر 1999، ص 205.

(13) حمدي حسن عبد الحميد المحروقي، دور التربية في مواجهة تداعيات العولة على الهوية الثقافية، مجلة دراسات في التعليم الجامعي، العدد 7، أكتوبر 2004، مركز تطوير التعليم الجامعي بجامعة عين شمس، القاهرة، ص 164.

(14) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الخطة الشاملة للثقافة العربية، ط 2، إدارة الثقافة، د. ت، تونس، ص 21.

ثالثاً- مفهوم الثقافة:

هو من المفاهيم المتبسة في كل اللغات، لأنه يراد التعبير بكلمة واحدة عن مضمون شديد التركيب والتعقيد والتنوع والعمق والاتساع، ويضاعف الالتباس أن علم الثقافة والأنثروبولوجيا الثقافية وعلم اجتماع المعرفة وعلم البرمجة العصبية اللغوية، ما زالت تُدرس على نطاق ضيق كتخصصات فردية ولم تصبح من العلوم التي يقرأها كل الدارسين كالفيزياء والجغرافيا والكيمياء والتاريخ؛ لذلك ظل معظم الناس لا يعرفون الحقائق الهامة التي توصلت إليها العلوم الإنسانية.⁽¹⁵⁾

والثقافة في اللغة العربية تطلق على معانٍ عدة، من أبرزها قول: (الحذق والفهم وسرعة التعلم)⁽¹⁶⁾. ويقول فريد وجدي: «ثقف يثقف ثقافة: فطن وحذق، وثقف العلم في أسرع مدة أي: أسرع أخذه، وثقفه يثقفه ثقفاً: غلبه في الحذق، والثقيف: الحاذق الفطن». من جهتها، تعرف القواميس الحديثة الثقافة بأنها: «ثقف ثقافة: صار حاذقاً خفيفاً، وثقف الكلام فهمه بسرعة»، وفي هذه النصوص من التشابه ما يدعونا إلى أن نعدّها نسخاً مكررة نقل بعضها من بعض⁽¹⁷⁾. أما أبرز التعريفات الغربية للثقافة، فهو ذلك الذي تردد صداه لدى الغربيين ثم لدى العرب كثيراً، وهو تعريف إدوارد تايلر عام 1871م في كتابه «الثقافة البدائية» الذي يقول فيه: «ذلك الكل المركب - بعض الترجمات تقول المعقد - الذي يضم المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والتقاليد، وكل العادات والقدرات التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع»، وفي هذا التعريف عناصر مهمة، هي:

- 1 - أن قضايا الثقافة هي القضايا ذات البُعد الإنساني - لا المادي - عقائداً، وقيماً، وفنوناً، ونظماً، وأعرافاً.
- 2 - أن هذه القضايا تتمثل في صورة بناء متكامل وليست جزئيات منفصلة عن بعضها.
- 3 - أنها ليست تمييزاً فردياً لشخص؛ وإنما هي اجتماعية، فالشخص يعيشها في ظل مجتمع أو أمة تعيشها كذلك.
- 4 - أنها ليست معارف نظرية؛ فلسفة، أو فكراً مجرداً، ولكنها حياة اجتماعية، وواقع فكري وسلوكي يتحرك به الناس.
- 5 - أنها بمجموعها مميزة لأهل ذلك المجتمع، أو لتلك الأمة عن مجتمعات وأمم أخرى،

(15) عادل شيهب، الثقافة والهوية: إشكالية المفاهيم والعلاقة، جامعة جيجل، الجزائر، ص 4. منشور على الموقع: <http://www.aranthropos.com>

(16) مادة (علم) في لسان العرب، ابن منظور.

(17) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، 2000، ص 19.

وهذا هو الواقع فإن التمايز بين الأمم إنما هو بهذه القضايا: العقائد، والقيم، والنظم، والأعراف، أي: الثقافة.

وهناك تعريفات كثيرة للثقافة لكن هذا أشهرها، ثم إنها تكاد تتفق على مضمون ما ذكر في التعريفات السابقة⁽¹⁸⁾.

إذن يمكن أن نخلص من ذلك بالآتي:

- أنه يصعب أن نجد تعريفاً جامعاً مانعاً للهوية الثقافية.
- أن الهوية تختلف من مجتمع لآخر ومن عصر لعصر.
- أن الهوية تختلف باختلاف التوجهات الفكرية والأيدولوجية.
- أن الهوية الثقافية تتكون من مزيج من اللغة والدين والتاريخ وثقافة المجتمع، وهذا معناها أن الهوية تكون لها خصوصيتها المستمدة من ثقافة المجتمع وتصلقها في تاريخه وحضارته.
- أن هناك ثلاثة مستويات للهوية تتمثل في: الهوية الفردية وهي على مستوى الفرد، والهوية الجماعية وهي التي تكون على مستوى الجماعة التي يوجد فيها الفرد، والهوية الوطنية والقومية، وهي التي تشمل المجتمع كله، وهذا معناها أن الهوية الثقافية لأي فرد لا تكون كاملة.
- أن الهوية الثقافية تتكون في ضوء ثلاثة عناصر رئيسة هي: الوطن والأمة والدولة.
- أنه لا يوجد تعارض بين وجود هوية لكل مجتمع وبين التفاعل مع متغيرات العصر.
- أن من مظاهر ضعف الهوية عندما يؤدي الإعجاب بالعلم والتقدم إلى الإعجاب بمن أبدعه، فيسيرون وراءهم ويتبعون خصوصياتهم الثقافية، وهذا يقودنا إلى ضرورة التعرف على مكونات الهوية الثقافية.
- وفي ضوء ذلك يمكن تعريف الهوية الثقافية العربية الإسلامية بأنها: «مجموعة السمات والخصائص التي تنفرد بها الشخصية العربية، وتجعلها متميزة عن غيرها من الهويات الثقافية الأخرى، وتتمثل تلك الخصائص في اللغة والدين والعادات والتقاليد والأعراف وغيرها من المكونات الثقافية ذات السمة العربية والإسلامية.

(18) عبدالرحمن الزنبيدي، المثقف العربي بين العصرية والإسلامية ومقومات الفاعلية الثقافية للمثقف المسلم، دار كنوز إشبيلية، الرياض، 2009، ص 14.

الفرع الثاني مقومات الهوية الثقافية في المجتمع العربي

تستمد الهوية الثقافية مقوماتها من عناصر راسخة شكلتها ثوابت جغرافية تعكس هذا الامتداد الجغرافي دون عوائق طبيعية من المحيط إلى الخليج، ومتغيرات تاريخية يتيح الرجوع إليها، فهماً أعمق للمستقبل وتطلعات نحو المستقبل؛ تكاد تكون قاسماً مشتركاً بين أبناء أمة واحدة، وتراثاً مركباً، قاعدته الراسخة قوة الاعتقاد ووسطية في السلوك، تترجم معاني التسامح رغم التباين في الأعراق والأنساب والمعتقدات، ولغة عربية هي بوتقة الانصهار الفكري والوجداني لأمة عربية واحدة⁽¹⁹⁾.

إذن فهذا معناه أن الهوية الثقافية العربية تتكون من عدة عناصر مرتبطة ببعضها، وأى خلل في أحدها يؤدي إلى خلل في باقي مكوناتها، ومن أبرز هذه المكونات:

أولاً - اللغة:

تعد اللغة هي المكون الأول والرئيس في الهوية الثقافية، فهي حياة الأمة وهي بدايتها ونهايتها، لأن اللغة في أي مجتمع ليست مجرد كلمات وألفاظ للتفاهم بين أفراد المجتمع، ولكنها وعاء يحوي مكونات عقلية ووجدانية ومعتقدات وخصوصيات هذا المجتمع، وبالتالي فإن الحفاظ على اللغة يعني ضمان بقاء واستمرارية أي مجتمع، فاللغة جزء لا يتجزأ من ماهية الفرد وهويته، كما أنها تتغلغل في الكيان الاجتماعي والحضاري لأي مجتمع بشري، وتنفذ إلى جميع نواحي الحياة فيه؛ لأنها من أهم مقومات وحدة الشعوب، وقد أشارت منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونيسكو) على لسان مديرها إلى أهمية الحفاظ على اللغات الخاصة بالمجتمعات حيث قال: «إن اللغات هي من المقومات الجوهرية لهوية الأفراد والجماعات، وعنصر أساسي في تعايشهم السلمي، كما أنها عامل إستراتيجي للتقدم نحو التنمية المستدامة، وللربط السلس بين القضايا العالمية والقضايا المحلية... تعدد اللغات عن بصيرة هو الوسيلة الوحيدة التي تضمن لجميع اللغات إيجاد متسع لها في عالمنا الذي تسوده العولمة، لذلك تدعو اليونيسكو الحكومات وهيئات الأمم المتحدة ومنظمات المجتمع المدني والمؤسسات التعليمية والجمعيات المهنية وجميع الجهات المعنية الأخرى إلى مضاعفة أنشطتها الرامية إلى ضمان احترام وتعزيز وحماية جميع اللغات، ولا سيما اللغات المهددة، وذلك في جميع مجالات الحياة الفردية والجماعية»⁽²⁰⁾.

(19) محمد إبراهيم عيد، الهوية الثقافية العربية في عالم متغير، مجلة الطفولة والتنمية، المجلد 1، العدد 3، خريف 2001، المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة، ص 111.

(20) «كويشيرو ما تسورا»، رسالة بمناسبة الاحتفال بالسنة الدولية للغات 2008، متاح على موقع اليونيسكو التالي: <http://www.un.org/arabic/events/iy>

إن لغتنا العربية من الركائز الأساسية للوجود العربي، فالوحدة اللغوية والثقافية بين البلاد العربية لا تتم إلا بالمحافظة على اللغة العربية التي تؤدي إلى وحدة الشعور والفكر⁽²¹⁾، كما كانت اللغة العربية هي الجسر الذي عبر عليه العرب والمسلمون جيلاً بعد آخر لتحقيق التواصل، ولهذا كانت اللغة العربية ومازالت جوهر الهوية الثقافية، فهي لغة القرآن، كما أنها لغة ثرية في محتواها ومفرداتها، وقد حافظت اللغة العربية على استمرارية الأمة العربية. ومن المؤكد أن إتقان اللغة العربية يساعد على الانسجام والتناغم بين أفراد المجتمع، بل والاعتزاز بهويتهم؛ لأن أبناء اللغة الواحدة يشكلون قوالب فكرية وثقافية مشتركة، لذا فاللغة والثقافة تسهمان مساهمة فعالة في الحفاظ على الهوية الثقافية العربية والإسلامية⁽²²⁾.

إذن فالعلاقة بين اللغة وبين الهوية الثقافية علاقة قوية لا تنفصم، ولهذا كان من أهم مقاييس رقي الأمم مقدار عنايتها بلغتها تعليمًا ونشرًا وتيسيرًا لصعوباتها⁽²³⁾، ونظرًا للأهمية القصوى للغة العربية، وكونها عنصرًا رئيساً من عناصر الهوية الثقافية، تعرضت لحمولات كثيرة للقضاء عليها؛ بغرض القضاء على الهوية الثقافية، وقد أشار «العقاد» إلى تلك الحملات بقوله: «إن الحملة على لغتنا الفصحى حملة على كل شيء يعيننا، وعلى كل تقليد من التقاليد الاجتماعية والدينية، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة؛ لأن زوال اللغة في أكثر الأمم يبقئها بجميع مقوماتها غير ألفاظها، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقئ للعربي المسلم قواماً يميزه في سائر الأمم، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم، فلا تبقى له باقية»⁽²⁴⁾.

وقد أشار أحمد المهدي عبد الحليم إلى خطورة اقتصار العناية بتعليم اللغة العربية على مدرسيها، وأن هذا يتناقض مع ما نادى به المفكرون والتربويون من أن كل معلم يجب أن يكون معلماً للغة في نطاق المادة التي يدرسها⁽²⁵⁾. وفي ظل العولمة ازداد ما تتعرض له اللغة العربية من محاولات تذويبها والقضاء عليها، حتى صار الشباب يتفاخر بتناقل الألفاظ والمصطلحات بلغات أجنبية، وصارت أسماء المحال التجارية تكتب باللغات الأجنبية، وغيرها من السلوكيات التي تنبئ بخطورة الأمر، خاصة في ظل الانفتاح الإعلامي والثورة الهائلة في علم الاتصالات، ولكن ستبقى اللغة العربية ما بقي القرآن

(21) صفاء محمد محمود، تصور مقترح لمقرر اللغة العربية لغير المتخصصين في تدريسها في ضوء أبعاد

الهوية في نظرية «فيرث» اللغوية، مؤتمر «مناهج التعليم والهوية الثقافية»، ص 1291.

(22) عبد الرحمن عمر الماحي، العولمة واستلاب الهوية الثقافية للمسلم، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، في الفترة 27-30 مارس 2007، ص 655.

(23) سعيد إسماعيل علي، ثقافة البعد الواحد، عالم الكتب، القاهرة، 2003، ص 16.

(24) عباس محمود العقاد، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت)، ص 30-31.

(25) أحمد المهدي عبد الحليم، شتات مجتمعات في التربية والتنمية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 287.

الكريم الذي تعهد الله بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:9].

ثانياً - الدين:

تستمد الهوية الثقافية العربية مقوماتها من الدين الإسلامي الذي يدعو إلى الحق ويتخذ من الإنسان موضوعاً له، فالخطاب القرآني موجه للناس جميعاً، فالدين هو المكون الأول لهويتنا الثقافية، لأنه هو الذي يحدد للأمة فلسفتها الأساسية عن سر الحياة وغاية الوجود، كما يجيب عن الأسئلة الخالدة التي فرضت نفسها على الإنسان في كل زمان ومكان، فالإسلام له تأثيره العميق والشامل في هويتنا الثقافية، كما أن التوحيد بمعناه الشامل يمثل أبرز ملامح هويتنا الثقافية، والتدين هنا لا يعني ممارسة الشعائر الدينية وحدها، بل هو موقف من ثوابت كثيرة، منها ما يرتبط بالأسرة وكيفية تكوينها بشكل صحيح، فهذا مكون رئيسي من مكونات الهوية الثقافية، ومنها ما يرتبط بالمنهج العلمي الذي اعتمد على العقل والوحي بشكل متوازن، وهذا يمثل أيضاً ملمحاً من ملامح هويتنا الثقافية⁽²⁶⁾.

إذن لا يمكن تصور وجود للهوية الثقافية العربية إلا بوجود الدين الإسلامي باعتباره سمة مميزة للمجتمعات العربية والإسلامية، وأداة المسلمين لمقاومة الاغتراب الثقافي، وبالتالي فأى هجوم على الإسلام هو بمثابة محاولة استلاب للهوية الثقافية والحضارية للأمة العربية⁽²⁷⁾. وقد أشار كثير من مفكري وفلاسفة الغرب إلى أهمية العناية بالجانب الديني قبل أية جوانب أخرى، فمثلاً يقول «وليم جيمس»: «الإيمان بالله هو الذي يجعل للحياة قيمة، وهو الذي يمكننا من أن نستخرج من الحياة كل ما فيها من لذة وسعادة، وهو الذي يجعلنا نتحمل كل ما في الحياة من محن، ونتقبلها بكثير من الشجاعة والرضا، وهو الذي يهيئ لنا كل ما هو ضروري لحياة وادعة»⁽²⁸⁾.

(26) محمد إبراهيم المنوفي وياسر مصطفى الجندي، التربية وتنمية الهوية الثقافية في ضوء العولمة، مجلة كلية التربية بدمياط، جامعة المنصورة، العدد 43، سنة 2003، ص 23-233. محمد أحمد محمد إسماعيل، برنامج مقترح لتفعيل دور أنشطة نادي الطفل لتأصيل الهوية الثقافية، مرجع سابق، ص 391.

(27) حمدي حسن عبد الحميد المحروقي، دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية، مجلة دراسات في التعليم الجامعي، العدد 7، أكتوبر 2004، مركز تطوير التعليم الجامعي بجامعة عين شمس، القاهرة، 2004، ص 168.

(28) السيد عبد العزيز البهواشي، دور التربية الإسلامية في تنمية الشخصية القومية المصرية لمواجهة مخاطر اللانظام العالمي اللاحق، ورقة بحثية مقدمة إلى مؤتمر كلية التربية، جامعة عين شمس، القاهرة، المجلد 2، السنة 1992، ص 440-441.

ثالثاً- التاريخ:

لا يمكن لأية أمة أن تشعر بوجودها بين الأمم إلا عن طريق تاريخها؛ الذي يمثل أحد قسّمات هويتها، فالتاريخ هو السجل الثابت لماضي الأمة وديوان مفاخرها وذكرياتّها، وهو آمالها وأمانيتها، بل هو الذي يميّز الجماعات البشرية بعضها عن بعض، فكل الذين يشتركون في ماضٍ واحد يعتزون ويفخرون بمآثره يكونون أبناء أمة واحدة، فالتاريخ المشترك عنصر مهم من عناصر المحافظة على الهوية الثقافية⁽²⁹⁾، وعلى ذلك يكون طمس تاريخ الأمة أو تشويهه أو الالتفاف عليه هو أحد الوسائل الناجحة لإخفاء هويتها أو تهميشها. وهذا معناه أننا الآن بحاجة إلى نهضة فكرية وثقافية لمحاربة الأساليب الجديدة التي تعمل على محو ذاكرة التاريخ، مثل ما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الجديد، وما يعنيه من محاولات إحداث تغييرات في الهيكل التنظيمي للمنطقة العربية، الأمر الذي يؤدي إلى تقويض إمكانية بناء نظام عربي جديد⁽³⁰⁾، ولعل هذا التاريخ المجيد هو الذي يكمن وراء محاولات الغرب طمس معالم الهوية العربية والإسلامية، ومن الأهمية أن يتوفر للعرب وعي علمي بتاريخ مجتمعمهم وتطوره ودينامياته، وقوانينه النوعية، مما يعينهم على تأصيل هويتهم، ومعرفة الملبسات التاريخية لحدودها⁽³¹⁾.

ولهذا لا بد من الاهتمام بتطوير مناهج تعليم التاريخ العربي والإسلامي، فبدلاً من التركيز بشكل رئيس على عرض التاريخ في شكل حروب وصراعات وخلافات، فلا بد من الاهتمام بعصور السلام والازدهار والرقى والتطورات الاجتماعية التي أحدثها الإسلام في البلاد التي دخلها، وأنارها بنوره، والحديث عن تأثير كبار المفكرين والفلاسفة العرب والمسلمين مثل ابن رشد، وابن سينا، والفارابي، وابن النفيس، وغيرهم كثير ممن أثروا الحياة الفكرية وأسهموا في إحداث التقدم والازدهار الحضاري للمجتمع العربي والإسلامي، بالإضافة إلى الإشارة لدور المرأة في المجتمعات الإسلامية عبر العصور المختلفة⁽³²⁾. فكل هذا يمكن أن يسهم بدور كبير في تأصيل الهوية الثقافية العربية والإسلامية، بل والمحافظة عليها من الأخطار التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية، خاصة وأننا في عصر العولمة التي يمكن أن تكون أحد العوامل التي أدت إلى حدوث أزمة في الهوية الثقافية العربية. فما أسباب هذه الأزمة؟ وما مظاهرها؟

(29) عبد الرحمن عمر الماحي، العولمة واستلاب الهوية الثقافية للمسلم، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، في الفترة 27-30 مارس 2007، ص 654.

(30) حمدي حسن عبد الحميد المحروقي، مرجع سابق، ص 168.

(31) محمد أحمد محمد إسماعيل، مرجع سابق، 2006، ص 393.

(32) فوزية العشماوي، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية (اللغة والتعليم، والتاريخ)، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 27-30 مارس 2007، القاهرة، ص 48-94.

المطلب الثاني

العوامل التي أدت إلى أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي

تمتلك الهوية الثقافية العربية الإسلامية مجموعة من العناصر التي تجعلها متميزة عن غيرها من الهويات الأخرى، بل لا تتوفر هذه العناصر لهويات أخرى، ومن أبرز تلك العناصر اللغة، والدين، والتاريخ، ولكن تعرضت الهوية الثقافية العربية لأزمة، ومما ساعد على اتساع هذه الأزمة جمود الثقافات لدى الشعوب العربية، وفقدان حيويتها وفعاليتها، وتجاهل المجتمعات العربية ضرورة تجديد ثقافتها، وتأهلها للحوار والتفاعل مع الثقافات الأخرى، بالإضافة إلى أن الثورة المعلوماتية اختصت بمجتمعات بعينها، وعند انتقال تأثيرات هذه الثورة إلى المجتمعات العربية انتقلت معها ثقافة مجتمعاتها وأنماط معيشتها وسلوكياتهم، الأمر الذي نتجت عنه تبعية ثقافية وسياسية واقتصادية، نظراً لعدم التكافؤ بين المجتمعات القوية وبين المجتمعات الضعيفة⁽³³⁾.

وهذا هو حال الأمم الضعيفة التي لا تملك حاضراً موصولاً بماضيها، وهنا تسلك أحد طريقين: إما أن تفرغ نحو ماضيها متمسكة به، وداعية إلى ممارسة الحياة على أساس منه، وإما استعارة حاضر غيرها وممارسة الحياة على أساس منه، وعندئذ يبدأ الصراع بين القديم والجديد، بل سيحاول البعض البحث عن سند للجديد من القديم، وهذا التوفيق قد يخفف من حدة الصراع، ولكن لن يكسب الأمة حاضرًا تصنعه هي، بل ستظل تستعير حاضر غيرها وتبني له أساساً واهياً من تراثها، وهذا هو مركز الأزمة التي تعانيها الهوية الثقافية العربية⁽³⁴⁾.

وقد أشار الكاتب «محمد حسنين هيكل» إلى واقع أزمة الهوية حين قال: «إن العالم العربي فقد الإحساس بهويته، وتملكته نزعات القبائل المتحاربة، ونتيجة ذلك فقد ضاع منه جامعه المشترك، ومواقفه المشتركة، وهدفه المشترك»⁽³⁵⁾، الأمر الذي أدى إلى ما نراه اليوم من تفكك وضعف وتخلف في المجتمعات العربية، لدرجة أنها لم تعد تتخذ قراراً واحداً فيه اتفاق إلا على ألا يتفقوا؛ مما جعلهم مطعماً للآخرين، ولم يعد لهم تأثير يذكر على

(33) سمير عبد الوهاب الخويت، طفل واحد وثقافات متعددة: أثر وسائل الإعلام والعمالة الأجنبية علي ثقافة الطفل الخليجي - دراسة تحليلية ميدانية، مجلة التربية، المجلد 3، العدد 1، الجمعية المصرية للتربية المقارنة والإدارة التعليمية، يونيو 2000، ص 148 - 149.

(34) عبد الودود مكرم: قيم هوية وثقافة الإنماء - مدخل لتحديد دور التعليم العالي في بناء مستقبل الأمة العربية، المؤتمر العلمي العشرون (مناهج التعليم والهوية الثقافية)، 30 - 31 يوليو 2008، جامعة عين شمس، مجلد 4، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، ص 1388.

(35) محمد حسنين هيكل، العرب على أعتاب القرن 21، مجلة المستقبل العربي، العدد 12، يونيو 1994، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 5-25.

الساحة الدولية، هذا ما نراه واضحاً في كثير من القضايا التي تهم العرب والمسلمين. ولذلك لا بد من ملاحظة أن سؤال الهوية يطرح نفسه بشدة مع النقلة النوعية للمجتمع الإنساني صوب المعلومات والمعرفة، وبالنسبة لنا كعرب يجب تناول الهوية لا بدافع سلبي من منطلق رد الفعل، بل كمطلب أساسي لكل المجتمعات العربية للحاق بالركب المعلوماتي⁽³⁶⁾، وهذه الأزمة التي تعرضت لها الهوية الثقافية العربية لم تأت من فراغ بل نتيجة مجموعة من العوامل، من أبرزها:

أ- التبعية الثقافية:

إن التبعية ليست وليدة اليوم بل هي نتاج محاولات متكررة عبر سنوات طويلة، حيث كان المستعمر الأوروبي يهدف إلى القضاء على الرموز الأساسية للثقافات، وخاصة الثقافة العربية بما تملكه من ميراث ضخم، وذلك بإحداث تغييرات في التنظيم الاجتماعي بما يملكه من مجالات متعددة، وتمثلت أبرز هذه التغييرات في محاولة إقناع البلاد العربية بأن الحل الوحيد لانتشالها من التخلف هو اتباع النمط الأوروبي بكل ما فيه، للوصول إلى التقدم، فكانت النتيجة هي الوقوع والسقوط في بئر التبعية للغرب ولثقافته، ووقوع مفكرينا في حيرة من أمرهم، هل يتبعون الغرب؟ أم يعتمدون على التراث؟ وكانت النتيجة هي أزمة في الفكر، تبعتها أزمة في الهوية الثقافية، وقد أشار الكاتب سعيد إسماعيل علي إلى أن من أبرز عناصر التبعية الثقافية:

- عملية الإنتاج الثقافي التي تشوه الثقافة الوطنية، وتدفع إلى التأقلم والتعايش مع واقع التبعية.
- مشاركة الشركات الاحتكارية في نشر الفكر التجاري الاستهلاكي وإنتاج ثقافة التبعية.
- نشر أجهزة الأنشطة الثقافية لمجموعة من القناعات والمبادئ والقيم التي تدفع إلى تقبل التنمية الرأسمالية الغربية، وتبرزها وكأنها ملائمة لواقعنا، بل وإلى الاقتناع بأن الاستعانة بالخبرات والمساعدات الغربية (المالية والتكنولوجية) هي شروط ارتكازية لتجاوز التخلف⁽³⁷⁾.

وتجسدت التبعية التربوية في إحلال قيم وعادات جديدة محل القيم والعادات الإسلامية والعربية، والعمل على تشويه التاريخ العربي والإسلامي، بل والعمل على إضعاف اللغة

(36) جورج قرقم، مشكلة الهوية والانتماء القومي عند العرب، مجلة العربي، العدد 537، أغسطس 2003، مطبعة وزارة الإعلام، الكويت، ص 30-34.

(37) سعيد إسماعيل علي، رؤية سياسية للتعليم، عالم الكتب، القاهرة، 1999، ص 213-214.

العربية والنيل منها، فهل نحن قادرون على المقاومة والتخلص من هذه التبعية؟ الحقيقة أن هذا أمر يحتاج إلى مجهود كبير لمواجهةها؛ ولذلك وجدنا أحد الباحثين المصريين يشير إلى أننا غير قادرين إلا على التبعية، لأننا لسنا أصحاب هوية متميزة، لأن الهوية الثقافية التي كانت تميز القومية المصرية قد حيل بينهما، وقدمت إلينا تربية لا يمكن أن تخرج إلا تلك النوعية من الأجيال التي تمارس التبعية الثقافية⁽³⁸⁾.

ب- العولمة الثقافية:

يعد البعد الثقافي والاجتماعي للعولمة من أخطر أبعادها، فهي تعني إشاعة قيم ومبادئ ومعايير ثقافة واحدة، وإحلالها محل الثقافات الأخرى؛ مما يعني تلاشي القيم والثقافات القومية، وإحلال القيم الثقافية للبلاد الأكثر تقدمًا محلها، وخاصة أمريكا وأوروبا، الأمر الذي ينعكس على الهوية الثقافية العربية.

وهكذا بات واضحًا أن مخاطر العولمة تمس بشكل مباشر ميدان الثقافة والحضارة، بل يمكن أن تتجه نحو صراع الحضارات، فالسعي إلى فرض هيمنة ثقافة واحدة تكون نتيجته إما انتهاء الثقافة الأضعف وذوبانها، أو تفوقها حول نفسها، أو تفجيرها وتفنيتها لصالح جماعات داخلية أو خارجية، الأمر الذي أدى إلى انقسامات عرقية وطائفية، ثم صراع الثقافات في النهاية، وبالتالي التأثير سلبياً على الهوية الثقافية للمجتمع⁽³⁹⁾.

ومن المعلوم أن للقيم جانين: قيم المحور المتمثلة في القيم الدينية التي تعد ثوابت مميّزة لهوية المجتمع العربي والإسلامي، وقيم وسيلية تتمثل في قيم التفاعل الحضاري، وتتمثل خطورة العولمة في محاولة التأثير في قيم المحور، وذلك من خلال نشر الفكر الغربي الذي يعمل على تغيير كل القيم الثابتة، ومحاولة إقناع أن الذي يتمسك بقيمه إنما يتعارض مع التقدم العلمي والفكري ونهضة العقل، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الشعور بالاعتراب لدى الشباب، ووقوعهم في أزمة حضارية، وفي صراع بين ثقافتين متعارضتين في وقت واحد، إحداهما خارج النفس والأخرى مدسوسة في ثناياها، فترى حضارة العصر في البيوت والشوارع، بينما تجد حضارة الماضي رابضة خلف الضلوع⁽⁴⁰⁾، لدرجة أن هؤلاء الشباب من شدة تعلقهم بالحضارة الغربية والحلم بالعيش في محيطها صاروا يعانون حالة من الاعتراب الثقافي، فهم وإن كانوا يعيشون على

(38) السيد عبد العزيز البهواشي، دور التربية الإسلامية في تنمية الشخصية القومية المصرية لمواجهة مخاطر النظام العالمي الالاجديد، مرجع سابق، ص 445

(39) حمدي حسن عبد الحميد المحروقي، مرجع سابق، ص 177.

(40) زكي نجيب محمود، ثقافتنا في مواجهة العصر، ط 3، دار الشروق، القاهرة، 1982، ص 160.

أرضنا إلا أن وجدانياتهم وعقولهم مهاجرة مغتربة قيمياً وفكرياً⁽⁴¹⁾.

فالعولمة تستهدف قيم الأصالة والانتماء، والعمل على تذويب الهوية العربية الإسلامية وصهرها بالهوية الغربية، كما صارت العولمة تتضمن محاولة تعميم نموذج مغاير لمفهوم المواطنة والمعاني الإحساس بها، والحد من حرية الدول في اتباع سياسات وطنية مستقلة، وقد عبر الكاتب رفيق حبيب عن هذه الظاهرة بقوله: «إن النخب الحاكمة الآن من رجال أعمال ومثقفين وخبراء ورجال بنوك وغيرهم لا تلتحم مع الدولة بل تنافسها وتشاركها»⁽⁴²⁾، ومن شأن العولمة الثقافية التأثير في الهوية الثقافية للمجتمع، ودعم الإحساس بالدونية والتبعية وضعف الولاء والانتماء. كما صارت اللغة العربية تتعرض للتهميش؛ نظراً لطغيان اللغة الإنجليزية وخاصة الإنجليزية الأمريكية، حيث «تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية تكنولوجيا المعلومات والاتصال، فحوالي 65% من مجموع الاتصالات المعالجة إلكترونياً تخرج منها، وتحكمه اللغة التي تتحدث بها، فقد أصبحت اللغة الإنجليزية هي لغة الاتصالات العالمية الآن، وأصبح تعلمها ضرورة لمواكبة العصر»⁽⁴³⁾، الأمر الذي أدى إلى إهمال اللغة العربية من الشباب وعدم إتقانها، والتركيز على الإنجليزية، مما أدى إلى ضعف قيم الولاء والانتماء لدى الشباب، وعدم تمسكهم بهويتهم الثقافية العربية والإسلامية، وقد تنبته منظمة اليونسكو لخطر العولمة الثقافية، فعقدت عدة مؤتمرات منذ بداية القرن 21 لمواجهة هذا الخطر، ونتج عن هذه المؤتمرات الدولية إعداد اتفاقيتين دوليتين هما:

1 - اتفاقية حماية وتدعيم تعددية التعبيرات الثقافية:

وتضمنت هذه الاتفاقية مجموعة من المبادئ، منها أن: «الثقافة تتخذ أشكالاً متنوعة عبر الزمان والمكان، ويتجلى هذا التنوع في أصالة وتعدد الهويات المميزة للمجموعات والمجتمعات التي تتألف منها الإنسانية، ولا بد في مجتمعاتنا التي تتزايد تنوعاً يوماً بعد يوم من ضمان التفاعل المنسجم، والرغبة في العيش معاً فيما بين أفراد ومجموعات ذوي هويات ثقافية متعددة ومتنوعة ودينامية. إن الدفاع عن

(41) شريف دولا، تنافسية مصر في إطار النظام التكنولوجي الجديد، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، 1996، ص 73.

(42) رفيق حبيب، مصر القادمة بين التغريب والتفكير، دار الشروق، القاهرة، 1998، ص 88.

(43) محمد إبراهيم عطوة مجاهد، بعض مخاطر العولمة التي تهدد الهوية الثقافية للمجتمع ودور التربية في مواجهتها، مجلة مستقبل التربية العربية، المجلد 7، العدد 22، يوليو 2001، المركز العربي للتعليم والتنمية، القاهرة، ص 183-184. انظر كذلك: أبو بكر رفيق، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية للعالم الإسلامي، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ص 723. وضيفة محمد أبو سعدة، ظاهرة الاغتراب لدى طلاب المدارس الثانوية العامة بجمهورية مصر العربية: دراسة ميدانية، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد 87، ديسمبر 1999، ص 19.

التنوع الثقافي واجب أخلاقي لا ينفصل عن احترام كرامة الإنسان، فهو يفترض الالتزام باحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية، وخاصة حقوق الشعوب الأصلية⁽⁴⁴⁾».

2 - اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي:

سعت هذه الاتفاقية إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، منها⁽⁴⁵⁾ صون التراث الثقافي غير المادي، واحترام التراث الثقافي غير المادي للجماعات والمجموعات المعنية، وللأفراد المعنيين، بالإضافة إلى التوعية على الصعيد المحلي والوطني والدولي بأهمية التراث الثقافي غير المادي، وأهمية التقدير المتبادل لهذا التراث، والتعاون الدولي والمساعدة الدولية.

كما عقدت اليونسكو مؤتمراً دولياً هاماً في شهر مايو 2007 في باريس، دعت إليه جميع دول العالم، وخاصة وزراء الثقافة فيها، والمسؤولين عن الهيئات والمنظمات الثقافية والمجتمع المدني، وكذلك الهيئات الدينية لإقرار بنود هاتين الاتفاقيتين الهامتين، ولتوقيع الدول على هاتين الاتفاقيتين لمواجهة خطر العولمة الثقافية⁽⁴⁶⁾.

وقد اعتمدت فرنسا قانوناً يحظر استخدام اللغة الإنجليزية في وسائل الإعلام الفرنسية وفي شتى المجالات، كما اعتمدت منهجاً عاماً في محافل الأمم المتحدة والمنظمات الدولية لمواجهة العولمة الثقافية والحفاظ على التعددية الثقافية، حيث أصرت فرنسا على قيام الأمم المتحدة والمنظمات الدولية بترجمة الوثائق والمستندات الصادرة باللغة الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية، واللغات الرسمية الأخرى للأمم المتحدة⁽⁴⁷⁾، والعكس هو الذي فعلته وتفعله الدول العربية، فهي تركز جل اهتمامها على تعلم وإتقان اللغة الإنجليزية فقط بشتى الطرق، وعدم الاهتمام بتعليم الأبناء اللغة العربية التي هي أحد مقومات الهوية الثقافية، فكيف يمكن لنا أن نحافظ على خصوصيتنا الثقافية؟ إن إهمال اللغة الأم يجعلنا ن فكر بعقول غيرنا، ونتكلم بغير لساننا، الأمر الذي يفقدنا هويتنا الثقافية العربية، ويؤكد تبعيتنا وانهزامنا وضعف انتمائنا.

(44) اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي، المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة «اليونسكو»، 29 سبتمبر - 17 أكتوبر 2003. متاح على موقع اليونسكو: <http://www.un.org/132540a.pdf/arabic/events/iyl/resources>.

(45) الإعلان العالمي لليونسكو بشأن التنوع الثقافي، الدورة 31، باريس، 2 نوفمبر 2001. متاح على موقع اليونسكو: <http://www.un.org/arabic/events/iyl/docs.shtml>.

(46) فوزية العشماوي، مرجع سابق، ص 440.

(47) المرجع السابق، ص 441.

المطلب الثالث

مظاهر أزمة الهوية الثقافية وملامحها في المجتمع العربي

إن الأزمة التي تعانيها الهوية الثقافية العربية تظهر من خلال مجموعة من المظاهر، والتي منها:

- 1 - عجز الثقافة العربية الراهنة عن التكيف الإيجابي الخلاق مع المتغيرات العالمية والإقليمية والمحلية، وهي أزمة كشفت عن جمود المجتمعات العربية المعاصرة، وعجز قياداتها عن الإبداع، بل وفشلها في إتاحة الفرصة للتنوع الفكري والإبداعات الثقافية⁽⁴⁸⁾.
- 2 - ما تمر به الهوية الثقافية من قسر وقهر وإجبار تُروِّج له قوى العولمة، وتقوده الولايات المتحدة الأمريكية، من حيث محاولة جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة المشتركة للعالم، ومحاولة فرض معايير مشتركة واحدة، وغالباً ما تكون ما يرتضيه الأمريكيون⁽⁴⁹⁾.
- 3 - ما نراه من ابتعاد شبابنا - شيئاً فشيئاً - عن هويتهم الثقافية العربية والإسلامية عن جهل ودون إدراك بخطورة ما يفعلون في حق أنفسهم بتهافتهم على تعلم اللغة الإنجليزية وجعلها هي لغتهم الأساسية، بل والتفاخر والاهتمام بإتقانها أكثر من اهتمامهم بلغتهم العربية، وارتداء «الجينز» و«الكاسكيت الأمريكي»، والتهافت على «ماكدونالدز»، و«موسيقى الجاز»، وعلى المسلسلات والأفلام التي تنشر أفكاراً وأخلاقاً ومفاهيم بعيدة كل البعد عن معتقداتنا وتقاليدنا، ولا يدرك أولادنا أن ما يفعلونه هو الخطوات الأولى نحو العولمة الثقافية⁽⁵⁰⁾.
- 4 - ومن أكبر مظاهر أزمة الهوية الثقافية، انهيار كثير من التربويين بالنتائج التربوي للغرب، وتطبيقه على الواقع العربي رغم اختلاف البيئتين العربية والغربية، ومن ثم اختلاف متطلباتها، مما جعل السمة الرئيسة للفكر التربوي العربي بشكل عام هي الاستغراب، حيث لا يكاد يوجد فكر تربوي عربي إسلامي أصيل، بل هناك نظريات تربوية غربية غرست في أغلب البيئات العربية، مما ساهم في جعل الهوية

(48) محمد إبراهيم المنوفي وياسر مصطفى الجندي، مرجع سابق، ص 226.

(49) ديفيد روتكوف، في مديح الإمبريالية الثقافية، ترجمة: أحمد خضير، مجلة الثقافة العالمية، العدد 85، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، نوفمبر - ديسمبر 1997، الكويت، ص 32.

(50) سعيد إسماعيل علي، مرجع سابق، ص 30-37. فوزية العشماوي، مرجع سابق، ص 443. علي قرني، دور الإعلام في بلورة اتجاهات التغيير في قواعد السياسة الدولية في عصر المعلومات، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان - الأردن، ص 11-12.

الثقافية العربية غير واضحة المعالم⁽⁵¹⁾.

5 - تظهر أزمة الهوية الثقافية بوضوح من خلال سيطرة النظام السمعي - البصري للعولة الثقافية، والتمثل في عشرات الإمبراطوريات الإعلامية التي تبث ملايين الصور يومياً، فيستقبلها مئات الملايين من المثقفين في سائر أنحاء المعمورة، ويستهلكونها بوصفها المادة الثقافية الأساسية التي يجري تسويقها على نطاق واسع، وهذا المعروض ليس مجرد صورة فقط أو تقنية فقط، بل هو كيفية جديدة لوعي العالم، فهذا النظام الثقافي الجديد ليس مجرد وسيلة، بل هو أكثر من ذلك، فهو طريقة معينة لإدراك العالم والتعبير عنه، ومصدر جديد لإنتاج القيم والرموز وصناعة الوجدان والذوق، وتشكيل الوعي⁽⁵²⁾، الأمر الذي جعل الشباب في حيرة من أمرهم ويعيشون أزمة فكرية يعبرون عنها من خلال العديد من سلوكياتهم، إما في شكل انسحاب واغتراب عن العالم، وإما في حالة عنف وتهديد لمجتمعهم، والأمران يمثلان أكبر مصدر للخطورة على شبابنا.

الفرع الأول

ملامح الهوية الثقافية العربية

في ضوء ما سبق، تستشف ملامح الهوية الثقافية التي تشكلت ضمن النسق الاجتماعي العام نسقاً فرعياً متميزاً ومستقلاً، لكنه يتفاعل مع بقية الأنساق الفرعية الأخرى ويتطور معها وبها، وتقوم الثقافة بتكوين جملة الطرائق والمعايير التي تحكم رؤية الإنسان للواقع، لذلك فإن الثقافة هي مجموع القيم والقواعد والأعراف والتقاليد والخطط التي تبعد وتنظم الدلالات العقلية والروحية والحسية، وتعمل على الحفاظ على توازن النسق الاجتماعي واستقراره ووحدته وتوحيد الأنساق الفرعية للنسق الاجتماعي عن طريق توحيد الأنماط العقلية التي تحكمها، فالثقافة تغذي الأنساق الفرعية للنسق الاجتماعي بقيم مماثلة فتخلق نسيجاً اجتماعياً واحداً قادراً على إعادة إنتاج نفسه. لذلك فإن الثقافة في الحقيقة ليست إلا المجتمع نفسه وقد أصبحت مظهراً للوعي أو وعياً، وهذا الوعي هو في ذات الوقت وعي للذات، ومسألة الهوية تُحيل وللوهلة الأولى، إلى المسألة الأوسع وهي مسألة الهوية الاجتماعية التي تعد الهوية إحدى مكوناتها، إذا لا يمكننا التطرق إلى مفهوم الهوية إلا إذا حددنا بعدها الاجتماعي، وعليه تعد الهوية الاجتماعية محصلة

(51) نادية بنت سالم بن سعد الدوسري، بعض مسؤوليات المدرسة الثانوية تجاه تعزيز الهوية الثقافية لطلابها، مؤتمر «مناهج التعليم والهوية الثقافية»، ص 1212.

(52) محمد إبراهيم المنوفي وياسر مصطفى الجندي، مرجع سابق، ص 227. عبد الإله بلقزيز، العولة والهوية الثقافية: عولة الثقافة أم ثقافة العولة؟، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص 315 - 316.

مختلف التفاعلات المتبادلة بين الفرد ومحيطه الاجتماعي القريب والبعيد، والهوية الاجتماعية للفرد تتميز بمجموع انتماءاته في المنظومة الاجتماعية، كالانتماء إلى طبقة جنسية أو عمرية أو اجتماعية أو مفاهيمية، وهي تتيح للفرد التعرف على نفسه في المنظومة الاجتماعية وتمكن المجتمع من التعرف عليه، ولكن الهوية الاجتماعية لا ترتبط بالأفراد فحسب، فكل جماعة تتمتع بهوية تتعلق بتعريفها الاجتماعي وهو تعريف يسمح بتحديد موقعها في المجموع الاجتماعي⁽⁵³⁾.

الفرع الثاني

العلاقة بين الهوية والثقافة

ثمة علاقة وثيقة بين الهوية والثقافة، بحيث يتعذر الفصل بينهما، وإذن ما من هوية إلا وتحتل ثقافة، وقد تتعدد الثقافات في الهوية الواحدة، كما أنه قد تتنوع الهويات في الثقافة الواحدة، وذلك ما يُعبّر عنه بالتنوع في إطار الوحدة، فقد تنتمي هوية شعب من الشعوب إلى ثقافات متعددة، تمتزج عناصرها، وتتلاقح مكوناتها، فتتبلور في هوية واحدة، وعلى سبيل المثال، فإن الهوية الإسلامية تتشكل من ثقافات الشعوب والأمم التي دخلها الإسلام سواء اعتنقته أو بقيت على عقائدها التي كانت تؤمن بها، فهذه الثقافات التي امتزجت بالثقافة العربية الإسلامية وتلاقحت معها الثقافة العربية الإسلامية، هي جماع هويات الأمم والشعوب التي انضوت تحت لواء الحضارة العربية الإسلامية، وهي بذلك هوية إنسانية، منفتحة، وغير منغلقة⁽⁵⁴⁾.

والعلاقة بين الهوية والثقافة، تعني علاقة الذات بالإنتاج الثقافي، ولا شك أن أي إنتاج ثقافي لا يتم في غياب ذات مفكرة، دون الخوض في الجدال الذي يذهب إلى أسبقية الذات على موضوع الاتجاه العقلاني المثالي، أو الذي يجعل الموضوع أسبق من الذات، وإن كل ما في الذهن هو نتيجة ما تحمله الحواس وتخطه على تلك الصفحة (ذهن الإنسان) كما يذهب لوك، والاتجاه التجريبي بشكل عام⁽⁵⁵⁾.

(53) عادل شيهب، مرجع سابق، ص 2.

(54) عبدالعزيز التويجري، الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية، ص 9.

(55) عادل شيهب، مرجع سابق، ص 6.

المبحث الثاني الحرية الثقافية

خص المولى تبارك وتعالى «الإنسان» بالعقل والإدراك والتمييز، وأمر بحفظ حقه في حرية التفكير والتعبير مادام ذلك في حدود الشرع ومصصلحة الجماعة، لا يُقهر على أمر، ولا يقصر على رأي، ولا يمنع من إبداء الرأي والاجتهاد فيه؛ لأن هذا قوام «نموه العقلي» واتساع مداركه وشحن تفكيره ومبادئه الإيجابية في بناء حياته الخاصة وفلسفته ونظرتة للحياة، وتحقيق طموحاته المستقلة، ومساهمته الفعالة في بناء حياة الجماعة وتطوير نظمها وتراثها الفكري والعلمي والحضاري، وتمكينها من بلوغ أهدافها المرجوة لخير جميع أفرادها.

ولأن في الحفاظ على حرية «الإنسان» في فكره وتعبيره، صوتاً لأدميته المكرمة من الله تعالى، ودعماً لكيانه المستقل والتميز عن غيره، وتنمية لشخصيته لتكون قوية متماسكة، وتعزيزاً لاعتداده بذاته وثقته بنفسه، وراحة وسعادة له في حياته، وإعطاء هذه الحياة معاني الكرامة وأسباب الهناء.

المطلب الأول

مفهوم الحرية وجوهرها وضوابطها

إن الحرية في الإسلام لا تعني الفوضى وارتكاب الموبقات والمنكرات باسم الحرية، واستباحة محارم الله والانغماس في الشهوات المحرمة، فالحرية التي تبيح هذه المحظورات هي فوضى، وتصور خاطئ للحرية، وقد صحّح الإسلام هذا التصور الخاطئ وقرر حرية الناس منذ ولادتهم، وأنه لا يجوز استعبادهم كما لا يجوز تقييد حرياتهم، وكل حق لهم يقابله واجب عليهم ليكون هناك توازن في الحياة والتعايش مع الآخرين. ولذلك قال الرسول ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فأذوهم فقالوا: لو أننا خرقتنا في نصيبنا خرقتنا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم هلكوا وهلك الناس جميعهم وإن منعوهم نجوا ونجا الناس جميعاً»⁽⁵⁶⁾.

(56) أخرجه البخاري كما مر في كتاب الشركة (2493)، وأخرجه أيضاً في كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات (2686)، بلفظ: (مثل المدخن في حدود الله والواقع فيها...) وأخرجه الترمذي في الفتن (2173) وأحمد (268/4)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (91/10)، وفي شعب الإيمان (7576) (91/6-92). وأخرجه ابن حبان (297) (532/1 - إحسان)، وفي [298] (534-533/1) بلفظ: (المداهن في حدود الله والراكب حدود الله والأمر بها والنهي عنها كمثل قوم استهموا...)، وفي [301] (537/1) بلفظ: (مثل المداهن في حدود الله والأمر بها والنهي عنها كمثل قوم استهموا سفينة..)

الفرع الأول

تعريف الحرية لغةً

«الحر، بالضم: نقيض العبد»، «والحرة: نقيض الأمة، والجمع حرائر»، «وتحرير الولد: أن يفرده لطاعة الله عز وجل وخدمة المسجد، وقوله تعالى: { إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [آل عمران: 53]». و«الحر من الناس: أختيارهم وأفضالهم. وحرية العرب: أشرافهم». و«الحرة: الكريمة من النساء»⁽⁵⁷⁾. «الحرِّيَّةُ: الأرضُ اللينةُ الرمليةُ»⁽⁵⁸⁾.

إن الحرية نقيض الاستعباد، قال ابن منظور: «الحرُّ بالضم نقيض العبد والجمع أحرار والحرة نقيض الأمة»⁽⁵⁹⁾. وقال الفخر الرازي: «المحرَّر الذي يُجعلُ حُرّاً خالصاً يقال حَرَّرْتُ العبدَ إذا خَلَّصْتَهُ من الرق، وَحَرَّرْتُ الكِتَابَ إذا أَصْلَحْتَهُ وَخَلَّصْتَهُ فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ شَيْءٌ من وجوه الغلط، ورجل حر إذا كان خالصاً لنفسه ليس لأحدٍ عليه تعلق، والطين الحر الخالص من الرمل والحجارة والحماة والعيوب»⁽⁶⁰⁾.

قال القرطبي: «محرراً مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية. من هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد وهذا معروف في اللغة إذ يقال: لكل ما خلص حُرٌّ ومحرَّرٌ بمعناه»⁽⁶¹⁾. وقال ابن منظور: «والحرُّ من كل شيء أعتقه»⁽⁶²⁾.

الفرع الثاني

تعريف الحرية اصطلاحاً

وقد تعددت المذاهب في تعريف الحرية، واختلفت الآراء وتباينت تبايناً شديداً في تحديد مصطلح منضبط للحرية، فقد ورد في إعلان حقوق الإنسان الصادر عام 1789: «الحرية هي حق الفرد في أن يفعل ما لا يضر بالآخرين»، وعرفها الفيلسوف جون لوك بأنها: «الحق في فعل أي شيء تسمح به القوانين».

أما عن تعريف الحرِّيَّة في الفقه الإسلامي، فيمكن الوقوف على تعريف الدريني الذي يقول فيه: «الحرية هي المكنة العامة التي قررها الشارع للأفراد على السواء، تمكيناً

(57) ابن منظور، 1410هـ، ج 4، ص 181.

(58) الفيروز بادي، 1993م.

(59) ابن منظور، لسان العرب، ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1419 هـ/ 1999 م، ص 117.

(60) الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، المجلد 3، الجزء 8، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001، ص 203.

(61) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 4، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص 60.

(62) ابن منظور، مرجع سابق، ص 118.

لهم من التصرف على خيرة من أمرهم دون الإضرار بالغير»، مستنداً على تعريف الفقهاء لمعنى الإباحة التي تقوم في أصل تشريعها على التخيير بين الفعل والترك. وقد ذهب الفاسي إلى محاولة التفريق بين نظرة الإسلام إلى الحرية ومفهومها عن كل النظريات الأخرى الفلسفية والاشتراكية والمادية الغربية بأن يقول: «الحرية جعل (حق) قانوني وليس حقاً طبيعياً، فما كان للإنسان ليصل إلى حريته لولا نزول الوحي، وأن الإنسان لم يخلق حراً، وإنما ليكون حراً».

وقد أيد ذلك مجموعة من المفكرين والباحثين المسلمين في العصر الحديث، إذ عرّفها د. رحيل محمد غرابية بأنها: «أصل مركوز في فطرة الإنسان، وجعلها مناط الابتلاء، كما جعل العقل مناط التكليف، فالله عز وجل الذي خلق الإنسان وكونه أراد عاقلاً حراً، ثم أناط به الخلافة في الأرض وإعمارها وفق منهج تشريعي عبادي متسق مع نوااميس الكون وحركة الموجودات»⁽⁶³⁾، ونقصد بالحرية هنا ما وهبه الله للإنسان من مكنة التصرف لاستيفاء حقه وأداء واجبه دون تعسف أو اعتداء، ولكن بعد التأمل الدقيق، نجد بأن مرجع جميع هذه التعاريف هو إلى جامع واحد وحقيقة مشتركة واحدة هي القدرة على الفعل والاختيار. دلت عليها ألفاظ متعددة، وبصور مختلفة... ولذا لم يتحصل لدى الانتقال من تعريف لآخر أمر آخر يضيف على التعريف الأول شيئاً يذكر سوى التبسيط، والتوضيح»⁽⁶⁴⁾.

الفرع الثالث

مفهوم الحرية عند المسلمين

والمولى سبحانه وتعالى يضرب لعباده المثل، وله وحده المثل الأعلى، أقر للإنسان حريته حتى فيما يتعلق بأمر الإيمان والعقيدة والتوحيد، وهي أسمى الأمور، وحمله مسؤولية حريته في إيمانه وكفره، وهذا هو العدل التام، وأقام عليه الحجة بما أعطاه من حرية قوامها الإرادة والاختيار والعقل⁽⁶⁵⁾. قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهْمُ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: الآية 29]. وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: من الآية 256]. وقال عز وجل: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: من الآية 99]. وقال جل جلاله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾﴾ [الغاشية: 21، 22].

(63) رحيل محمد غرابية، الحقوق والحرريات السياسية في الشريعة الإسلامية، ط 1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، 1421 هـ / 2000 م، ص 134.

(64) عبد الحسين شعبان، ثقافة حقوق الإنسان، ط 1، رابطة كاوا للثقافة الكردية، بيروت، 1421 هـ / 2001 م، ص 44.

(65) عبد الحميد الصيد الزنتالي، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1993 م، ص 196.

ومن أسرار الشريعة الإسلامية حرصها على تعميم الحرية في الإسلام بكيفية منتظمة، فإنَّ الله لما بعث رسوله بدين الإسلام كانت العبودية متفشية في البشر، وأقيمت عليها ثروات كثيرة، وكانت أسبابها كثيرة: وهي الأسر في الحروب، والخطف في الغارات، وبيع الآباء والأمهات أبناءهم، والرهائن في الخوف، والتداين. فأبطل الإسلام جميع أسبابها عدا الأسر.

إن مفهوم الحرية من المنظور الإسلامي يتحقق من خلال الحقوق والواجبات باعتبارهما وجهين لعملة واحدة؛ لأن الحقوق من دون أن تقيد بالواجبات ستجعل الفرد غير مرتبط بالآخرين، وقد يعرف حقوقه ولا يعرف حقوق الآخرين عليه، وبذلك يصبح انفرادياً في تعامله، قاصراً عن أداء واجباته، وقد حرص الإسلام على تطبيق مبدأ الحرية في هذه الحدود وبهذه المناهج في مختلف شؤون الحياة، وأخذ به في جميع النواحي التي تقتضي كرامة الفرد، وهي النواحي المدنية والدينية ونواحي التفكير والتعبير، ونواحي السياسة والحكم حتى وصل به في كل النواحي إلى شأن رفيع لم تصل إلى مثله شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه وحديثه.

وهكذا حياة الناس على سطح الأرض كركاب السفينة تحمل هذه الأرض البر والفاجر، والصالح والطالح والمحسن والمسيء كالذين يسيئون للآخرين بما فيهم أنبياء الله ورسله، بحيث يرسمونهم في صور لا تليق بمقامهم الذي يستحق الاحترام والتقدير والتقدير، فإن ترك هؤلاء المسيئون يمرحون ويفعلون ما يحلو لهم وما يشاءون، دون الأخذ بأيديهم وكفها عن اقتراف الموبقات والآثام لهلك الناس جميعهم نتيجة لاختلال التوازن في مطالب الحياة، وإن أخذ بأيديهم نجوا ونجا الناس جميعاً وحيوا حياة طيبة، هذا هو توجيه الإسلام للحرية، أرشدنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة.

وقد عزز الرسول صلى الله عليه وسلم في سنته المطهرة وسيرته العطرة مبدأ «الحرية» سواء في التفكير أم في التعبير أم في إعمال الرأي والاجتهاد في أمور الدين والدنيا، حرصاً منه على تكوين الشخصية المستقلة المتماسكة القوية لدى المسلم. فأتثناء الاستعداد لمعركة «بدر الكبرى» والتخطيط لها، قال الصحابي الجليل «الحابب بن المنذر» رضي الله عنه: «يا رسول الله، إن هذا المكان الذي أنت فيه ليس بمنزل، فانطلق بنا إلى أدنى ماء إلى القوم، فإنني عالم بها وبقلبها، بها قلب قد عرفت عذوبة مائه لا ينزح، ثم نبني عليه حوضاً فنشرب ونقاتل، ونغور ما سواه من القلب، فنزل جبريل عليه السلام على رسول صلى الله عليه وسلم فقال: «الرأي ما أشار به الحباب»، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل ذلك.

ولما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث الصحابي الفقيه «معاذ بن جبل» رضي الله عنه إلى اليمن ليعلم الذين دخلوا إلى الإسلام ويفقههم، قال عليه الصلاة والسلام: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟» قال أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله»، قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟»، قال: أجتهد برأيي ولا ألو، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله». وعن عائشة وعن أنس بن ثابت رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»⁽⁶⁶⁾.

وعن محارب بن دثار أن عمر رضي الله عنه قال لرجل: «من أنت؟ قال: أنا قاضي دمشق، قال: وكيف تقضي؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإذا جاء ما ليس في كتاب الله، قال: أقضي بسنة رسول الله، قال: فإذا جاء ما ليس في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد برأيي وأوامر جلسائي، فقال له عمر: أحسنت»⁽⁶⁷⁾.

الفرع الرابع

مصطلح الحرية في الثقافة الإسلامية

إن مصطلح الحرية في الثقافة الإسلامية هي تأكيد للعبودية الخالصة لله وحده، والحرية التي يدعو إليها الإسلام هي التحرر من العبودية لغير الله، وإفراد الله وحده بالعبودية له وحده، وذلك بإفراده بالعبادة والاتباع والانقياد له وحده في جميع مجالات الحياة. فالؤمن الذي يذعن لأمر الله، ويكفر بالطاغوت ثم يؤمن بالله هو الحر الذي يتحرر من جميع العبوديات لغير الله، مفرداً الله وحده بالعبادة والتعظيم والحب والاتباع، متبرئاً من كل عبودية يقع فيها كل من حرم من نعمة الهداية بدين الإسلام، ومن تنكب عن منهاج العبودية لله أو زاغ عنه زائغ إلا وقع في أحقر العبوديات وأخسها، وهي عبوديات هوى النفس والشيطان التي حذرنا الله منها.

فالحرية في الإسلام هي تطهير النفس من كل التعلقات، وتحريرها من كل العبوديات التي يقع فيها كل من عدل عن إخلاص العبودية لله وحده. وعلى ذلك فإن الثقافة الإسلامية لا تطلق أو تمنح صفة الحرية إلا للمسلم الذي تدرج لنيل أعلى درجات الإيمان والعبودية لله وحده، وبهذا تكون الحرية في الإسلام تأكيداً للعبودية الخالصة لله وحده، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي في منظومته الشهيرة الشاطبية، ممتدحاً قارئ القرآن المجتهد في حفظه واستظهاره، مطلقاً عليه صفة الحر كأرفع صفة يمتدحه بها:

(66) عبد الحميد الصيد الزنتالي، مرجع سابق، ص 458.

(67) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، جامع المسانيد والمراسيل، الجزء 13، دار الفكر، دمشق، 1994، ص 472.

«وَقَارِئُهُ الْمُرْضِيُّ قَرَّ مِثَالُهُ كَالأُتْرُجِّ حَالَهُ مُرِيحاً وَمُوكِلاً
هُوَ الْمُتْرَضِيُّ أَمَا إِذَا كَانَ أُمَّةً يَمَّمُهُ ظِلُّ الرِّزَانَةِ فَنَقِلاً
هُوَ الْحُرُّ إِنْ كَانَ الْحَرِيُّ حَوَارِيًّا لَهُ بِتَحْرِيهِ إِلَى أَنْ تَنْبَلًا»⁽⁶⁸⁾.

وفى البيت الأخير يتوج امتداحه لقارئ القرآن بإطلاق صفة الحر عليه فيقول: «إن القارئ هو الحر الذي لم يستعبده الهوى، ولم تسترقه الدنيا، ولكن إذا كان خليقاً جديراً بالتحري في القرآن، والاستعداد لحفظه واستظهاره، والسير على طريقه حال كونه مخلصاً له نيته، موجهاً إليه جميع حواسه وشعوره إلى أن ينبغ في العلم أو إلى أن يموت»⁽⁶⁹⁾. ورحم الله عالم الأمة الإسلامية ابن منظور، الذي أورد حيث يمكننا أن نضيف التعريف اللغوي لمفردة الحرية لتعريفها في مصطلح الثقافة الإسلامية حيث يقول: «وتحريضُ الولد أن يفرد له طاعة الله عز وجل وخدمة المسجد وقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾. قال الزجاج: هذا قول امرأة عمران ومعناه جعلته خادماً يخدم في متعبداك»⁽⁷⁰⁾.

وقال الفخر الرازي: «فقليل: معناه مخلصاً للعبادة عن الشعبي، وقيل: عتيقاً من أمر الدنيا لطاعة الله. والمعنى أنها نذرت أن تجعل ذلك الولد وقفاً على طاعة الله»⁽⁷¹⁾. وقال القرطبي: «ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها مُحَرَّرًا: أي عتيقاً خالصاً لله تعالى، خادماً للكنيسة، حببياً عليها، مُفَرَّغاً لعباده الله تعالى. وروى خفيف عن عكرمة ومجاهد «أن المحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا»⁽⁷²⁾.

وقد جاء في البيان الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان برعاية المجلس الإسلامي بلندن الذي أعلن في اجتماع عقد بمقر منظمة اليونسكو في باريس بتاريخ 19/9/1981م⁽⁷³⁾ أن من ضمن الحقوق التي أقرها الإسلام: «حق الحرية، حق حرية التفكير والاعتقاد والتعبير، وحق الحرية الدينية»⁽⁷⁴⁾، ويبدو التأثير واضحاً بثقافة الفلسفة الليبرالية ومفاهيمها في صياغة هذه الحقوق التي نسبت للإسلام، ولا بد من ضبط هذه الحريات

(68) عبد الفتاح القاضي، الوافي في شرح الشاطبية، ط 4، دار السلام، القاهرة، 1427 هـ/ 2006 م، ص 10-11.

(69) المرجع نفسه، ص 11.

(70) ابن منظور، مرجع سابق، ص 117-118.

(71) الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مجلد 3، ج 8، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1422 هـ/ 2001 م، ص 203.

(72) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء 4، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص 59-60.

(73) رؤى إسلامية معاصرة، كتاب مجلة العربي، العدد 45، ط (1)، 15 يوليو 2001 م، مطبعة وزارة الإعلام، الكويت، تأليف نخبة من الكتاب، تقديم د. محمد سليم العوا، ص 159-160.

(74) المرجع نفسه، ص 160.

ليتحقق تنزيه الإسلام عن أباطيل هذه الفلسفة.

الفرع الخامس

مصطلح الحرية في الثقافة الليبرالية الغربية المعاصرة

الحرية، والأحرار، أو أحرار الفكر هي ترجمة للكلمات الإنجليزية Liberals، Freedom، Thinkers، Liberalism، وهي - كلمات اصطلاحية يراد بها إطلاق الفكر من كل قيد، ومن العقائد الدينية على وجه الخصوص⁽⁷⁵⁾. وقد ابتدع فلاسفة الليبرالية للدولة الديمقراطية هذه الحريات المعادية لوعي الله وعلى رأس هذه الحريات (حرية الاعتقاد) التي تحل ما حرمه الله من اعتقاد العقائد الشيطانية الطاغوتية الباطلة التي أوجب الإسلام محاربتها، وتطهير الأرض منها. فالنظام الديمقراطي يتميز بالحرية المطلقة للأفراد وهذه الحريات تتضمن: (1) حرية الاعتقاد، (2) حرية الرأي والتعبير عنه، (3) الحرية الشخصية، (4) حرية اختيار العمل، (5) حرية إنشاء الأحزاب ووضع برامجها، (6) حرية إنشاء الصحف والمجلات الحزبية وغير الحزبية، (7) حرية معارضة الحكم، (8) حرية تنظيم التظاهرات والإضرابات⁽⁷⁶⁾.

فعلى الكتاب الذين يريدون إقحام مفاهيم الحرية المعاصرة على الإسلام أو نسبتها إليه أن يعلموا أن منظري فلسفة الحرية المعاصرة هم فلاسفة الليبرالية، وأنهم ما ابتدعوها إلا عداً وضراً لوعي الله الذي يقوم على وجوب تحقيق العبودية لله وحده، ولذلك فإن هدى الإسلام يتبرأ ويتنزه عن هذه الفلسفة الباطلة المتقلبة من ضوابط الشرع.

أولاً- مقارنة بين مفهوم الحرية في الإسلام وبين مفهومها في الفلسفة الليبرالية:

لقد ذكرت فيما سبق أن الأساس الأول للفلسفة الليبرالية هو فكر القانون الطبيعي الذي يعني التحرر من الخضوع للوحي واتباع مطلق هوى النفس. أما الإسلام فيقوم على العبودية لله وحده، وإفراد وحي الله بالاتباع والتعظيم والحب. ولا بد من التفريق والتمييز بين مفهوم الحرية في الإسلام، ومفهومها في الفلسفة الليبرالية تطهيراً لوعي الله وتنزيهاً له عن الباطل، وقد وضحت ذلك في الأسطر السابقة. وبعد تعرّفنا على معنى الحرية في مصطلح الثقافة الإسلامية، وعلى أنها تعني تأكيد العبودية لله وحده يتضح لنا مدى الخطأ وفداحته في نسبة بدعة حق الحرية في العقيدة والدين للإسلام. فإذا كانت الحرية الليبرالية تعني اتباع مطلق الهوى، ذلك الهوى الذي يمتلئ بغضاً وعداءً للوحي الرباني، فقد وصف الله متبعي الهوى المتبرئ من اتباع الوحي الرباني بأسوأ

(75) محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، ط 9، دار الرسالة، مكة المكرمة، 1413هـ/1993م، ص: 76.

(76) علاء بكر، مذاهب فكرية في الميزان، دار العقيدة، القاهرة، (د.ت)، ص 138.

أنواع الضلال، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 50].

قال القرطبي: «فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ» أي آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحبُّبه لهم الشيطان، وأنه لا حجة لهم ﴿أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أضل منه⁽⁷⁷⁾. وقال الشيخ السعدي: «فهذا من أضل الناس حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فأتبعه، وترك الهدى فهل أضل ممن هذا وصفه»⁽⁷⁸⁾. وقال الطبري في تفسير الآية السابقة: «ومن أضل عن طريق الرشاد وسبيل السداد ممن اتبع هوى نفسه بغير بيان من عند الله وعهد من الله، ويترك عهد الله الذي عهده إلى خلقه في وحيه وتنزيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أن الله لا يوفق لإصابة الحق وسبيل الرشاد القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته وكذبوا رسوله وبدلوا عهده واتبعوا أهواء أنفسهم إثارة منهم لطاعة الشيطان على طاعة ربهم»⁽⁷⁹⁾. وقد حذرنا الله تعالى من اتباع الهوى واتخاذ معبوداً من دون الله. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23].

قال الشيخ السعدي: «أَفَرَأَيْتَ الرَّجُلَ الضَّالَّ الَّذِي اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ فَمَا هُوَ سَلَكُهُ سِوَا مَا يَرْضَى اللَّهُ أَوْ يَسْخَطُهُ»⁽⁸⁰⁾. وقال القرطبي: «قال ابن عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبد ما يهواه أو يستحسنه، فإذا استحسن شيئاً وهوى اتخذه إلهاً». وقال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه، وقال سفيان بن عيينة: إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة. وقيل: المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجبياً لذوي العقول من هذا الجهل. وقال الحسن بن الفضل: في هذه الآية تقديم وتأخير مجازة: أفرأيت من اتخذ هواه إلهه، وقال الشعبي: إنما سُمِّيَ الهوى هوىً لأنه يهوى بصاحبه في النار. وقال ابن عباس: ما ذكر الله هوىً في القرآن إلا ذمه قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: 176]. وقال

(77) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، الجزء 13، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص 236.

(78) تفسير السعدي، ص 561.

(79) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء 20، ص 87.

(80) تفسير السعدي، ص 713.

تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

وقال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَ هُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [الروم: 29]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: 50].

وقال: [«ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، فالمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب»⁽⁸¹⁾]. وفي قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ [الفرقان: 43]. قال الشنقيطي: «وإيضاح أقوال العلماء المذكورة في هذه الآية أن الواجب الذي يلزم العمل به هو أن تكون جميع أفعال المكلف مطابقة لما أمره به معبوده جل وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه، وإذا فكونه اتخذ إليه هواه في غاية الوضوح»⁽⁸²⁾.

وقال ابن كثير: «ثم قال تعالى لنبيه منبهاً أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ أي مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8]⁽⁸³⁾. وقال الإمام الشاطبي: «فقد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق، وعده قسيماً له كما في قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: 37-39]، وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 40-41]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾﴾ [النجم: 3-4]. فقد حصر الأمر في شيئين: الوحي وهو الشريعة، والهوى فلا ثالث لهما، وإذا كان كذلك فهما متضادان وحين تعين الحق في الوحي توجّه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضاد للحق، فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج من اتباع الهوى والدخول تحت التبعد للمولى»⁽⁸⁴⁾.

(81) حسن، ذكره الهيتمي في المجمع (1/90-91) عن ابن عمر وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط، والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع (3045).
 (82) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1996، ص 396.
 (83) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء 3، دار إحياء الكتب العربية، حلب، د، ص 320.
 (84) عبد الفتاح القاضي، مرجع سابق، ص 10-11.

ثانياً- جوهر الحرية:

تفضي المرتكزات الأربعة، المتمثلة في (1) الاستخلاف، (2) التكريم، (3) الإيمان، و(4) العمل، والتي هي جوهر حقوق الإنسان في الإسلام، إلى الحرية والمساواة والعدل والشورى. فقد ورد معنى حرية الدين والعقيدة، وإقامة الإيمان على الاقتناع الذاتي، والنهي عن الجبر والإكراه، في أكثر من مائة وعشرين آية، منها قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة: 256، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَرَ مِنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29].

ثالثاً- ضوابط الحرية:

إن الحرية في الإسلام ليست سائبة ولا مطلقة حتى تهوي بصاحبها إلى قاع الضلال الروحي ودرك الانحطاط الأخلاقي، بل هي حرية واعية منضبطة، فإذا خرج بها الإنسان عن أحكام الدين ونطاق العقل وحدود الأخلاق ومصالحة الجماعة تمت مساءلته ومحاسبته وإيقافه عند حده وردة عن غيه، منعاً لضرار الفرد والجماعة، وفساد الدين والدنيا⁽⁸⁵⁾. ومن يضع الحدود والقيود على الحريات عليه أن يكون له العلم الكامل بالإنسان وحاجاته وميوله وتركيبته وما يصلحه وما يفسده في الماضي والحاضر والمستقبل؟ وهل هناك أحد يعلم الصنعة إلا صانعها؟ وهل يعلم ما يصلح الإنسان وما يفسده إلا الله؟ يقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]، فما من مسلم يؤمن بوجود الله إلا ويؤمن بأن الله عز وجل هو أولى وأحق من يشرع المنهج السليم الذي يصلح الإنسان، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

ولعل هذه الضوابط المتعلقة بالحرية الدينية، والتي يقتضيها بعدها الاجتماعي هي من أدق ما تنطوي عليه هذه القضية من العناصر، إذ هي إذا لم تقم على معادلة دقيقة بين ما يحفظ حقيقة الحرية وجوهرها وبين ما يضمن بلوغها أهدافها، فإن الأمر فيها قد يؤول إلى ما يهدرها، إما بالتقييد الذي ينقض حقيقتها، وإما بالفوضى التي تعطل مفعولها، وقد وقع من ذلك شيء كثير في التاريخ بما فيه تاريخ المجتمع الإسلامي نفسه، إن

(85) عبد الحميد الصيد الزنتالي، مرجع سابق، ص 459.

على مستوى التأسيس النظري، وإن على مستوى الواقع العملي. ولكن المتأمل في تلك الضوابط كما أصلتها التعاليم الإسلامية، وكما جرى عليه الأمر في المجتمع الإسلامي حقباً طويلة من الزمن يجد أنها قدّرت على معادلة دقيقة تنفادي ذلك المصير الذي تنتهي إليه الحرّية بالقيود المتعسّفة أو بالاضطراب والفوضى. ولعلّ من أهمّ تلك الضوابط ما يلي:

1 - منع الغواية:

معنى ذلك ألا تكون حرّية التفكير والاعتقاد فيما تنتهي إليه من إظهار للمعتقد ودفاع عنه ودعوة إليه سالكة مسلك التعرير بمن يتوجّه إليهم الخطاب، وذلك بمثل أن يكون ذلك الخطاب مستعملاً في بيان موضوعه وفي الدعوة إليه والإقناع به أدوات خارجة عن ذات ذلك الموضوع ممّا يتضمّن من أفكار وممّا يسنده من حجج، قصد أن تكون تلك الأدوات الخارجة مسوّغاً لاعتناق المعتقد المبين المدعوّ إليه، فيكون ذلك المعتقد إذن قد رُوّج بين الناس وأصبح معتقداً لهم لا بمقتضى قوّته الذاتية وإنّما بمقتضى عوامل خارجية قامت مقام المغرّرات المضلّة. ولهذه الغواية التي تقف حرّية المعتقد عند حدودها صور متعدّدة متجدّدة، فمن الإغواء أن يكون الخطاب مصحوباً بمغريات مادية من تقديم أموال أو تحقيق شهوات فيما يشبه المقايضة متمثلة في اعتناق المعتقد، ومنه أيضاً إغواء الضعفاء من الأميين والبسطاء والقصر من الأحداث وغيرهم، وذلك بأن يُفصل هؤلاء عن محيطهم الأسري أو الاجتماعي، ويُركن بهم إلى خلاء، فيُستغلّ ضعفهم وقصورهم، ويمارس عليهم خطاب لا تكون لهم قدرة على تبين محتواه تبييناً واعياً، فإذا هم يُعبأون بمعتقدات يُلقنونها تلقيناً فيما يُشبه المخادعة التي تنتفي فيها قدرتهم على تمحيص ما يُلقنون والقرار بقبوله أو رده، فيكون قبولهم للمعتقدات التي يتضمّننها الخطاب حاصلًا لديهم بضرب من الإكراه، وهو المبرّر لأن يكون هذا الإغواء حدّاً تقف دونه الحرية الدينية.

وممّا يدخل ضمن هذا الإغواء ما نراه اليوم حاصلًا في الإعلام من برامج تتّجه للأطفال، وتخطبهم في بعض المضامين الاعتقادية بضروب من الإيحاءات من شأنها أن ترسخ تلك المفاهيم في أذهانهم بطريقة تمرّ بها إليهم دون قدرة منهم على التمييز بينها والحكم عليها، بل هي طريقة تصبح بها تلك المفاهيم غير مقدور منهم على مراجعتها حتى عندما ترشد عقولهم، وتبلغ درجة القدرة على التمييز والحكم.

وممّا يشبه هذا أيضاً ما يمارسه الإعلام اليوم من خطاب يتّجه به إلى العامّة من الناس، ويكون حاملاً لمعان عقديّة بصفة مباشرة أو غير مباشرة، يمرّرها إلى عقولهم بطرق

شئى تلتقى كلها عند معنى من التفرير بهؤلاء المخاطبين الذين لا يملكون إزاء هذا الخطاب إمكانية التمييز بين ما هو حقّ فيه وما هو باطل، وذلك لقوّة ما يخالطه من التزيين والتمويه، ولقصور الكثير من سامعيه عن إدراك الحقيقة فيه وراء ما خالطه من تزيين وتمويه، إنّه يشبه أحياناً أن يكون ضرباً من غسل الأدمغة، حيث يُكرّس على السامعين تكراراً مستمرّاً لتلك المعاني ذات الأبعاد العقديّة في صور مختلفة وبأساليب شتى حتّى ترسخ في الأذهان على أنّها حقّ دون أن تتوفّر فرصة لتمرّ بميزان النقد الذي يعتمد الحجّة، وهو الشرط الذي يُسمح به للحرية في المعتقد من جهة إظهاره والدعوة إليه، فإذا ما اختلّ مثلما هو الأمر في هذه الحال قُيّدت تلك الحرية ووقفت عند ذلك الحدّ.

2 - تكافؤ الفرص:

إذا كان يجوز في المجتمع الإسلامي من حيث المبدأ أن لكلّ صاحب معتقد أن يعرض معتقده ويدعو إليه بمقتضى ما شرّع من الحرية في ذلك، فإنّ من القواعد التي تضبط تلك الحرية أن يكون بين الفرقاء العارضين لمعتقداتهم والداعين إليها تكافؤ في فرص عرضهم ودعوتهم، بحيث يتساوى الجميع في الإمكانيات الممكنة من ذلك، من كان عارضاً منهم ومن كان معترضاً، ومن كان محتجاً ومن كان ناقداً للحجج. والمقصود بتكافؤ الفرص في هذا الشأن أن يتساوى جميع المشاركين فيه، متوفّرين على ذات الشروط الممكنة من المشاركة فيه، ممّا هو داخل في مجال الشروط الخارجية التي لا تتعلّق بالإتقان في العرض أو البراعة في الاحتجاج أو القدرة على الإقناع أو ما شابه ذلك، ممّا هو عائد إلى قدرات مكتسبة من قبل أصحاب المعتقدات بجهودهم.

ويُعدّ من بين تلك الشروط تمكّن الجميع من قدر مشترك من وسائل التبليغ التي تتوقّف على ترخيص من منابر إعلامية وتنظيمات ثقافية ومؤسسات تعليمية حينما يكون ذلك موقوفاً على الترخيص، وتمكّنهم من قدر مشترك من التمويل أو أسبابه حينما يكون ذلك متوقفاً على منح خارجي، وتمكّنهم من ظروف متشابهة تجري فيها مناشطهم المعرفة بمعتقداتهم والداعية إليها. وأمّا إذا وقع حيف لأيّ سبب من الأسباب في تكافؤ هذه الفرص، بأن وُفّرت أو توفّرت للبعض دون البعض الآخر، فإنّ ذلك يكون خطأ تقف دونه الحرية الدينية في بعدها الدعوي؛ وذلك لما يفضي إليه هذا الحيف من خلل في تدافع الآراء، ومن فرصة للمقارنة بينها، واختيار ما يقع به الاقتناع منها، فحينما يُتاح لصاحب معتقد ما مالّ يقوى به على الحركة من أجل عرض معتقده، وأبواق دعائيّة ينشر بها ذلك المعتقد، وتنظيمات ينظّم من خلالها دعوته إليها، ولا يتوفّر من ذلك شيء لغيره من أصحاب المعتقدات المغايرة، فإنّ ذلك يفضي إلى أنّ السامعين من أفراد المجتمع لا يستمعون إلّا إلى دعوة واحدة لعلوّ صوتها، ويُحرمون من الأصوات التي تنقدها

وتعرض المخالف لها، وذلك ضرب من التفرير الذي تقف عنده هذه الحرية، إذ فيه تسويق للرأي الواحد وحجب لغيره مما من شأنه أن يهدر إمكان التمييز والحكم والاختيار.

ومما يجري به الحال اليوم أنّ بعض المعتقدات يُمكن أصحابها دون غيرهم من الوسائل المختلفة لعرضها والإقناع بها، وقد يكون ذلك بتخطيط من شبكات عالمية تتخذ لها وكلاء في مختلف البلاد بما فيها البلاد الإسلامية، فتزودهم بقدرات مالية هائلة، وبوسائل إعلامية فاعلة، وتسهّل لهم أعمالهم بتسخير تنظيمات ومؤسّسات مختلفة، فإذا هم في نشر معتقداتهم يصلون ويجولون، وغيرهم مغلول الأيدي لا يقدر من ذلك على شيء فيما يتعلّق بالتعريف بالمعتقد المخالف لما يدعون إليه من معتقدات، وذلك بفعل سدود وقيود وموانع مباشرة وغير مباشرة تقام في وجوههم إمّا بالمؤامرات والدسائس، أو بقوة القانون، أو بالبطش والاستبداد، أو بالحرمان من وسائل العمل الدعوي.

وفي المجتمع المسلم ينبغي أن تتوفر فرص متكافئة لكلّ صاحب عقيدة كي يعرف بعقيدته، إلا أن يكون تفريراً أو غواية بمظاهرها المختلفة، وحينئذ فإنّ التدافع بين الآراء والمعتقدات سيظهر به للناس ما هو حقّ من تلك المعتقدات وما هو باطل تبعاً لقوة الحجج التي تسندها، فيختارون منها ما يقنعهم بحريّة لا يصادرها احتكار في العرض أو حيف في فرص التبليغ، فإذا ما صودرت بذلك تلك الحريّة في اختيار السامعين فإنّ حريّة المعتقد تمنع في حقّ العارضين لمعتقداتهم حتى ينعدل الوضع بتكافؤ الفرص، وحينما ينعدل ذلك الوضع يكون لكلّ في المجتمع الإسلامي حريّة المعتقد إظهاراً واحتجاجاً ودعوة كما مرّ بيانه⁽⁸⁶⁾.

3 - الأمانة في العرض:

إذا أراد صاحب معتقد في المجتمع الإسلامي أن يعرف بمعتقده ويدعو إليه ممارسة لحريّة المعتقد، فإنّه يكون بمقتضى تلك الحريّة مطالباً بأن يعرض ذلك المعتقد بأمانة كما هو عليه في حقيقته التي استقرّ عليها وعُرف بها، وذلك سواء من حيث بنائه الفكري أو من حيث تاريخه أو من حيث آثاره، وإذا كان معتقداً جديداً فالأمانة تقتضي أن يكون ذلك بيناً لدى السامعين، وأن يعرض هذا المعتقد الجديد بوضوح وتمييز، وأمّا إذا داخل عرض المعتقد المدعو إليه، والذي هو مستقرّ في حقيقته معلوم بوثاقه وتاريخه تزييف

(86) يقع الحديث أحياناً من قبل بعض المسلمين عن منع الدعوة إلى معتقدات غير إسلامية في المجتمع الإسلامي من مثل ما تقوم به الإرساليات التبشيرية وغيرها، ونحسب أنّ الحديث عن المنع في هذا الشأن ينبغي ألا يكون معللاً بهذم الدعوة من حيث ذاتها، إذ الحريّة في ذلك مكفولة من حيث المبدأ، ولكن يُعلل بعدم تكافؤ الفرص، إذ غالباً ما يكون هؤلاء الدعاة إلى معتقداتهم المخالفة للإسلام متوفرين على إمكانات مادية ومعنوية كبيرة من قبل الجهات التي ترعى نشاطهم، وهي إمكانات لا تتوفر للدعاة المسلمين لا في البلاد الإسلامية ولا في البلاد غير الإسلامية التي يعيشون فيها، فإذا تكافأت الفرص بين الجميع في الدعوة إلى معتقداتهم فلا مبرر إذن للمنع، وتمضي حريّة المعتقد مرسلة.

وتلبيس، وإلحاق لما ليس منه به، وتجريد له من بعض ما فيه مع المحافظة على اسمه المعهود، فإنّ ذلك يكون خطأ تقف دونه حرّية المعتقد في بعدها الدعوي؛ وذلك لما تنتهي إليه هذه الحرية من تلبيس خادع يزيّن ما قد يكون قبيحا، ويستدرج السامعين بما قد يكون حقاً إلى ما هو باطل، وفي ذلك ضرب من الاعتداء على حرّيتهم في الاختيار، تلك الحرّية التي تقتضي أن يكون الاختيار وارداً على ما هو معروض على حقيقته لا على ما هو معروض بتزييف، فإذا ما داخل العرض تزييف كان ذلك مبرراً لمصادرة حرّية العارض ضمناً لحرّية السامعين. ومما يندرج تحت هذا القيد الضابط لحرّية المعتقد أنّ العارض لمعتقده على الناس إذا ما قام في سياق عرضه بنقد ما هو مخالف له من المعتقدات الأخرى ينبغي أن يكون آميناً في نقده، وذلك بأن يكون نقده مبنياً على تصوير تلك المعتقدات كما هي عند أصحابها دون تحريف فيها بزيادة أو نقصان أو تغيير ممّا من شأنه أن يشوّه صورتها ويقبّحها عند المخاطبين، فهذا التزييف المقصود به التبشيع هو ممّا تقف عنده حرّية المعتقد كما وقفت عند التزييف من أجل التحسين لما في كلّ منهما من هدر للاختيار الحرّ بين المعتقدات الذي لا يتحقّق إلاّ بإظهارها على حقيقتها سواء في سياق العرض أو في سياق النقد⁽⁸⁷⁾.

وإذا كانت هذه الأمانة في عرض المعتقدات شرطاً في حرّية المعتقد بصفة عامّة فإنّها تصير شرطاً مغلظاً حينما يتعلّق الأمر بأمانة تربوية يعهد فيها المجتمع إلى من يعلم الناشئة ما يرتضيه من دين، فإنّ هذا المعلم ينبغي عليه أن يؤدّي هذه الأمانة بالوقوف في تعليمه عند المعتقد الذي كلف بتعليمه كما هو عند من كلفوه، فإذا ما انحرف به إلى ما يرتئيه هو من تأويلات خاصّة به في ذلك المعتقد، أو انحرف به إلى ما يغيّر حقيقته كما هي عند أصحابه بأيّ صورة من صور التغيير، فإنّ ذلك تكون به خيانة الأمانة مضاعفة، إذ قد جمعت بين خيانة الأمانة العلمية وخيانة أمانة التكليف، فيكون إذن الخطّ الحائل دون حرّية المعتقد فيها أشدّ وأقوى لما في ذلك من اعتداء مضاعف على حرّية الاختيار.

ومما نشهده اليوم من مشاهد تطبيقية لبعض هذه الصور المخلّة بأمانة العرض ما يتصدّى له بعض المدّعين لعرض المعتقد الإسلامي على الناس من عامّتهم، أو على الناشئة في إطار التربية والتعليم، فإذا بذلك العرض لا يحمل من المعتقد الإسلامي إلاّ

(87) لا يدخل فيما قلناه سواء في العرض أو في النقد ما قد يُسلك من مسلك المدح ببيان الصّحة، والذمّ ببيان الفساد، وبيان ما يترتب على الصّحة من منافع ومصالح، وما يترتب على الفساد من مضارّ إذا كان كلّ ذلك مبنياً على تصوير المعتقد المعروض أو المنتقد على وجهه كما هو عند أصحابه، فإنّ ذلك يدخل تحت باب الاحتجاج الذي هو مشروع في إطار حرّية المعتقد، فإذا ما انقلب الأمر إلى تزييف وتلبيس كان مانعاً من ممارسة تلك الحرّية.

الاسم، وأمّا المحتوى فهو لا يمتّ بصلة إلى ذلك المعتقد كما جاءت تعرضه مصادر، وكما استقرّ في أسسه الكبرى عند معتنقيه طيلة تاريخه، وإنّما هو تأويلات تقلب حقائقه رأساً على عقب، وتجعل من صفة الإسلام صفة غير منطبقة عليه، ويتم ذلك في أحيان كثيرة تحت عنوان الحرية الدينية، إذ الدين ليس ملكاً لأحد ولكل أن يبدي رأيه فيه وأن يؤوّله كما يراه.

إنّ مثل هذه المشاهد لا يمكن أن تستصحب حرّية المعتقد لما تنطوي عليه من تزيف وتغريب بانتحال صفة الإسلام وإطلاقها على ما هو ليس بإسلام، ناهيك إذا كان ذلك في إطار التربية والتعليم. ولو عرض هؤلاء المعارضون معتقدهم ودعوا إليه تحت اسم آخر غير اسم الإسلام وفي غير إطار التعليم لكان ذلك أدعى إلى استصحاب الحرّية في عرضهم ودعوتهم إذا ما تحققت الشروط الأخرى لتلك الحرّية⁽⁸⁸⁾.

4 - احترام المشاعر الدينية:

من الضوابط الأساسية لحرّية المعتقد احترام المشاعر الدينية، فمن المعلوم أنّ للمعتقدات في النفوس حرمة لا تدانيها حرمة، حتّى إنّ أصحاب المعتقدات يضخّون بأنفسهم في سبيل معتقداتهم. وإذا كانت حرّية المعتقد تتحمّل أن يقع تناول معتقدات الآخرين بالنقد الذي يهدف إلى بيان مكامن الضعف فيها، وبيان ما في حججها من تهافت، وما ينتهي إليه اعتناقها من بوار، وغير ذلك مما هو داخل ضمن الاحتجاج العقلي، فإنّها لا تتحمّل بحال أن يقع تناول تلك المعتقدات بما يجرح حرمتها في نفوس أصحابها خارج نطاق الحجاج العقلي، فتتأذى تلك النفوس جرّاء ذلك، لما ينال معتقداتها من مهانة. وما يجرح المشاعر الدينية أصناف من التصرفات، فمنها تناول المعتقدات بالتحقير والاستنقاص والشتمية، ومنها تناول الرموز الدينية من أشخاص ومقدّسات مختلفة بالتشنيع المادّي والمعنوي سباً وقذفاً وأتھاماً، ومنها الغمز واللمز والنبز في تلك الرموز بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة عن طريق القصّ الأدبي والروايات والتمثيلات والرسوم وما شابه ذلك، فهذه التصرفات كلّها من شأنها أن تجرح المشاعر الدينية بما هي استهتار بالمقدّسات ونيل منها بما لا تتحمّله النفوس المؤمنة بها لشدة حرمتها فيها، وشدة غيرتها عليها.

وإنّما تسمح حرّية المعتقد بالنقد ولا تسمح بما يجرح المشاعر، لأنّ النقد فيه بيان لحقيقة المعتقدات في ذاتها قصد إظهار ما فيها من حقّ أو باطل ليؤخذ السامع منها موقفاً بناءً

(88) من البين أنّ هذا المشهد لا يندرج فيه ما يقع من اختلاف أنظار في فهم الدين، ومن تأويلات ذات وجه معقول، ومن كلّ ما من شأنه أن يبقى على صفة الإسلام منطبقة على ما يُدعى إليه، فهذا ما جرى عليه تاريخ الإسلام منذ نزوله متمثلاً في ذلك العدد الكبير من المذاهب والفرق التي حفل بها التاريخ الفكري للإسلام والتي صُمّنت لها الحرّية في عرض معتقداتها والدعوة إليها.

على ما يظهر له من ذلك الحقّ والباطل، فساحة التدافع في هذه الحال هي الحجّة العقلية الواردة على مادّة موضوعية مطروحة لنظر الجميع، وأمّا التحقير والشتيمة واللمز وما في حكمها فإنّها ليست واردة على المعتقد كمادّة موضوعية تتدافعها العقول بالحجّة، وإنّما هي واردة على مشاعر المعتقدين للإيذاء والنكاية، وهو ما لا علاقة له بأن تُفسح للعقول فرصة الاختيار تبعاً لما يُطرح من الحجج العقلية بالنقد الموضوعي، وإنّما هو باب عريض من أبواب الفتنة بين الناس، ليس من شأنه إلاّ أن يودّي إلى التهاجر بينهم، فينفتح إذن باب واسع للاضطراب الاجتماعي، وهو المبرّر لأن يُقفل باب الحرّية دونه.

ومن الأصول الشرعية المقرّرة لهذا المبدأ المنظم لحرّية الرأي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام/108]، فبعد التشريع بالإباحة للمجادلة العقلية في شؤون المعتقدات بالحجّة العقلية معبراً عنها بـ «التي هي أحسن» وهو تشريع لحرّية المعتقد، جاء هذا التشريع الضابط لتلك الحرّية بالحدود التي يكون فيها احترام المشاعر الدينية؛ ولذلك جاء هذا النهي عن أن يؤول الحوار في شأن المعتقدات إلى السباب الذي يجرح المشاعر ويفضي إلى الفتنة.

وهذا الأصل المنظم لحرّية المعتقد في المجتمع الإسلامي هو أصل عامّ يستوي فيه أهل المعتقدات والأديان من المسلمين وغيرهم، فالحرّية في المجادلة بالحجّة في عرض المعتقد ونقد مخالفه حقّ للجميع، وتقف هذه الحرّية عند حدّ السباب والشتيمة بالنسبة للجميع أيضاً، وهو ما أوضحه ابن عاشور في قوله: «وليس من السبّ [المنهّي عنه] إبطال ما يخالف الإسلام من عقائدهم [أي غير المسلمين] في مقام المجادلة، ولكنّ السبّ أن نباشرهم في غير مقام المناظرة بذلك، ونظير هذا ما قاله علماؤنا فيما يصدر من أهل الذمّة من سبّ الله تعالى أو سبّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم بأنهم إن صدر منهم ما هو من أصول كفرهم فلا يُعدّ سبّاً، وإن تجاوزوا ذلك عدّ سبّاً»⁽⁸⁹⁾. وهذا ميزان حكيم في التفرقة بين ما هو مناظرة تبسط لها الحرّية، وبين ما هو شتيمة جارحة تدخل دائرة المنوع.

وبحسب هذا الميزان فإنّه ليس من باب المحاجّة التي تُبسط لها حرّية المعتقد ما نجم عند بعض أهل الغرب بل وفي المجتمع الإسلامي أيضاً منذ بعض السنوات من اعتداءات جارحة على بعض مقدّسات الإسلام ورموزه متمثلة في ضروب من الاستنقاص والتحقير والاتّهامات، وهو ما يسبّب أذى كبيراً لمشاعر المسلمين، ويقال في تبريرها والدفاع عنها إنّها من باب الفنّ الذي هو غير ملزم بأن يعرض الحقيقة، وإنّما يجوز فيه الرمز واللمز. إنّ هذا الضرب من تناول المعتقدات بالعرض النقدي ليس إلاّ تعدّياً على المشاعر بما هو شتيمة وسباب وليس مجادلة ومناظرة، وهو بذلك يخرج عن دائرة حرّية

(89) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء 7، ص 430. 431.

المعتقدات. وقد كان الحسّ الإسلامي العامّ صادقاً في موقفه من مثل هذه التصرفات، فهذا الحسّ لم يثره ما جرت به أفلام كثيرة في نقد الإسلام في مجال المناظرة التي تستعمل الحجج العقلية، إذ قوبل ذلك النقد بحجاج عقلي هادئ، ولكنّه لما اعتُدي على المشاعر الإسلامية بالشتيمة والسباب كانت له ثورة معلومة وردود فعل صارمة⁽⁹⁰⁾.

5 - منع التصرفات الكيدية:

إذا كان الوقوف موقف النقد من المعتقدات المخالفة أمراً تسمح به حرّية المعتقد كما بيّناه، فإنّ التصرفات الكيدية إزاء تلك المعتقدات تُلحق بالتصرفات الجارحة للمشاعر في وقوف تلك الحرّية دونها؛ ذلك أنّ الكيد هو الاستدراج والمكر، فإذا كان صاحب عقيدة ما في المجتمع الإسلامي يسلك في سبيل نشر عقيدته أساليب الاستدراج والمكر، أو كان يسلك ذلك إزاء العقيدة المخالفة في سبيل صدّ الناس عنها، فإنّ تصرفه ذلك لا يكون داخلياً ضمن ما تسمح به حرّية المعتقد، إذ هو تصرف لا ينصر المعتقد المعتنق أو يهزم المعتقد المخالف من خلال بيان ما في هذا من قوّة وما في ذلك من ضعف من حيث الذات في كلّ منهما، وإنّما هو يقوم بذلك من خلال وسائل خارجية يُستدرج بها الناس على غرّة ليسري بينهم المعتدّ المدعوّ إليه، أو ليتخلّوا عن معتقدهم المدعوّ إلى تركه، وذلك ضرب من التلبّيس الذي تقف دونه حرّية المعتقد.

ومن الصور الظاهرة للتصرفات الكيدية ما أشرنا إليه سابقاً من القصد إلى التحريف في عرض المعتقد من حيث بنيته الذاتية، وإظهاره على غير حقيقته التي يدعيها لنفسه وتتنطق بها مصادره، إمّا بما هو محسّن بغية النشر، أو بما هو مبشّع بغية الحسر، استدراجاً في ذلك للسامعين كي يقبلوا على هذا ويدبروا عن ذلك. وفي التّأصيل لهذا المعنى جاء مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة/75]، فالتحريف من قبل هذا الفريق للمعتقد المخالف لهم إنّما صدر منهم في سياق الكيد المقصود به أن يُصرف عنه الناس المدعوّون إليه. ومن قرائن ذلك السياق الكيدي ما جاء عقب ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ

(90) يمكن أن يُذكر في هذا الصدد ما قوبل به من موقف إسلامي ثائر صاحب رواية آيات شيطانية، وصاحب رواية أعشاب البحر، وما حدث أخيراً من رسوم مسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم، وما اقترفه البابا في حق الإسلام من إساءة، فهؤلاء تحت غطاء الفنّ اعتدوا بالتحقير والتشنيع على معتقدات إسلامية، فقوبل ذلك باحتجاجات واسعة من قبل عامّة المسلمين، وقد كان كثير غيرهم قبلهم وبعدهم تعرّضوا لتلك المعتقدات بالنقد الذي هو أخطر في حقيقته من السبّ والشتيمة، ولكن ذلك الموقف لم يقابل إلا بردود علمية في مجال المناظرة، ويكاد عموم المسلمين لم يسمعوا بما جرى في هذا الشأن أصلاً، وقد كان تاريخ الفكر الإسلامي يجري على هذا النحو، فقد حفلت المدوّنة الثقافية الإسلامية بالمناظرات بين ناقدين لمعتقدات إسلامية وبين مدافعين عنها في مناخ من حرّية المعتقد. راجع في ذلك كتاب المناظرات لابن السكوني.

لِحَاجَتِكُمْ بِهِ، عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ [البقرة/76]، فالتحريف من هذا الفريق إنّما هو مندرج ضمن هذا السياق الكيدي لضرب من الأغراض على ما بيّنه الله تعالى من بعد في قوله تعالى: «واشتروا به ثمناً قليلاً»⁽⁹¹⁾.

وربما يكون من الصور الكيدية التي تمتنع لأجلها حرية المعتقد انتحال معتقد ما من المعتقدات من أجل التصرف باسمه تصرفات مشينة من شأنها أن تصوّره في عيون الناس بصورة قبيحة بما يقترن في الأذهان من التطابق بين تلك التصرفات وبين المعتقد المنتحل الذي تصدر باسمه. إنّ هذا الانتحال بما هو تصرف كيدي تنحسر دونه حرية المعتقد، إذ هو آيل إلى ضرب من النقد للمعتقدات المخالفة نقداً تشويهيّاً بوسائل لا علاقة لها ببنيتها الذاتية من حيث إظهار ما في تلك البنية من ضعف أو قبح، وهو أسلوب لو شاع بين الناس في المجتمع لأفضى إلى اضطراب كبير، وإذا أفضت الحرية إلى الاضطراب كان ذلك مؤذناً بتقييدها.

ولعلّ ممّا يؤصّل لهذا القيد من قيود حرية المعتقد قوله تعالى: ﴿لَنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب/60]، فهؤلاء الذين تستنكر الآية تصرفهم هم أولئك النفر في المجتمع الإسلامي بالمدينة الذين انتحلوا الإسلام انتحالاً كيدياً، وجعلوا من موقعهم ذلك يخذلون الإسلام ويخذلون المسلمين، ويرجفون بالأخبار الكاذبة والإشاعات الزائفة المتعلقة بهذا الدين ومعتنقيه قصد صرف الناس عنه، وبثّ الاضطراب والفتنة في المجتمع. لقد كان بعض اليهود في المدينة يجادلون في شأن المعتقد الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، نقداً له وانتصاراً لمعتقدهم، ولم يكن ذلك سبباً لمنعهم أو تهديدهم بالمنع، ولكن لما تصرف بعض آخر منهم هذا التصرف الكيدي المتمثل في انتحال المعتقد الإسلامي نفاقاً لغرض التخاذل، كان ذلك سبباً في مصادرة حرّيتهم في الاعتقاد لما تفضي إليه تلك الحرية لو أُتيح من فساد واضطراب.

إنّ هذه الضوابط المقيدة للحرية الدينية إنما هي ضوابط شرعت من أجل حماية هذه الحرية كي تؤدي إلى الهدف المقصود، وهو تمكين الناس من أن يختاروا دينهم عن بصيرة، وأن يمارسوا شعائرهم في اطمئنان، وأما إذا انفلتت الحرية الدينية من كل قيد فإنها سوف تؤدي إلى فوضى يغرر الناس فيها بعضهم ببعض، ويعتدي فيها البعض على مشاعر الآخرين، وتكون من ذلك فتنة اجتماعية كبيرة، من حيث إنّ الأديان ما جاءت إلا بما فيه خير الإنسان وسلامته وأمنه.

(91) الرازي، التفسير الكبير، 2/146.

المطلب الثاني

آثار وثمار حرية الرأي على الأفراد والأمم

إن مفهوم الحرية آثاراً تعود على المجتمعات التي تطبق فيها هذه الحرية حسب اختلاف الأساس الذي تقوم عليه هذه المجتمعات، وحسب آلية التطبيق للحرية، وهذه الآثار إما أن تعود على هذه المجتمعات إيجاباً أو سلباً، وهذا ما سأطرق له في هذا المطلب من خلال ذكر أبرز الآثار المترتبة على مفهوم الحرية.

الفرع الأول

الآثار الإيجابية

إن من الإنصاف الإشارة إلى أن الحرية في الغرب كان لها جوانب إيجابية، ودعت إلى ما دعا إليه الإسلام من أمور خيرة صالحة، ففي مجال الحقوق والحريات نجد أن النظام الديمقراطي قد أقر - قانونياً على الأقل - بعدد غير قليل من الحقوق والحريات، وذلك مثل: حرية الاعتقاد، والحرية الشخصية، وحق الملكية، وحق العمل والسكن والانتقال والتعليم، وفي المجال السياسي أقر بحق الانتخاب، وحق الترشيح، وحرية الرأي، وحق الاحتجاج إلى غير ذلك من الحقوق والحريات، وهو يمثل هذا الإقرار يكون مخالفاً للنظم الاستبدادية التي لا تقر بشيء مثل ذلك، ويمثل هذا الإقرار أيضاً مع بريق الديمقراطية⁽⁹²⁾. يكفل النظام الديمقراطي الحق للشعب بالإشراف على الحكومة وتوجيهها، وله حق نقدها والاعتراض على أعمالها، ولذلك صورتان: إحداهما: التمثيل النيابي، ويشمل حق الانتخاب وحق الترشيح لدخول البرلمان. الثانية: حق الاجتماع وإبداء الرأي خارج البرلمان، ويشمل الصحافة والاجتماعات والمظاهرات السلمية التي تقام للمطالبة بأمر معين أو الاحتجاج على أمر معين. وفي داخل البرلمان تتوفر للعضو كل الضمانات التي تتيح له حرية التعبير عن رأيه، وأن ينتقد الحكومة بما شاء، ويحاط بالحصانة البرلمانية التي تكفل عدم محاسبته على ما يقول.

وبهذا يكون لدى العضو حرية واسعة لتوجيه الحكومة إلى الطريق الذي يرى أنه الصواب، ويملك البرلمان في مجموعه سلطة توجيه الحكومة، وتقييد تصرفاتها، وجعل الشعب حارساً على هذه التصرفات، أما خارج البرلمان فالحقوق تتضمن حرية التعبير عن الرأي، وحرية النقد، وحرية الاحتجاج⁽⁹³⁾.

ومن أبرز سمات الحرية منع الاستبداد وكفالة مشروعية الدولة، فتركيز السلطة

(92) محمد شاكر الشريف، حقيقة الديمقراطية، منشور بنظام (بي دي اف) على موقع: <http://www.saaaid.net/Doat/alsharef/k5.pdf>، ص 15.

(93) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ط 9، دار الشروق، القاهرة، 2001، ص 193-195.

يغري بسوء استعمالها؛ لما جبلت عليه النفس من الإسراف في مباشرة السلطة وإساءة استعمالها إذا أطلقت القدرة وغابت الرقابة. كما أن مشروعية الدولة تتحقق بخضوع الجميع للقانون حكماً أو محكومين، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالفصل بين سلطات الدولة، ووجه ذلك أن الجمع بين سلطتي التشريع والتنفيذ في يد واحدة ينفي عن القانون صفة التجرد والحيادة والعمومية، فقد تعدل السلطة التنفيذية في القوانين في الحالات الفردية التي يشوبها الهوى، بل قد تنشئ لها القوانين إنشاء ما دام لا رقيب عليها في ذلك ولا حسيب، وكذلك إذا جمع بين سلطتي القضاء والتشريع في يد واحدة أصبح القاضي طاغية، وقد تعدل القوانين أو تنشأ ابتداء في ضوء الحالات الفردية التي يشوبها الهوى فتنتفي عن القانون الحيادة والموضوعية كذلك، وبالمثل لو جمع بين سلطتي القضاء والتنفيذ في يد واحدة لما يؤدي إليه ذلك من انتفاء رقابة القاضي على عدالة التنفيذ وشرعيته، وتصبح الحرية بلا ضمان مادام القاضي هو المشرع في الدولة، ولا مخرج من ذلك إذن إلا بالفصل بين السلطات حتى توقف كل سلطة طغيان الأخرى، إذا السلطة تقيد السلطة وحتى تتحقق مشروعية الدولة⁽⁹⁴⁾.

إذا فإن للحرية في النظام الديمقراطي عدة نواحٍ إيجابية يمكن تلخيصها فيما يأتي:

- 1 - الحصول على حق إخضاع تصرفات الحكومة لرقابة المجالس النيابية عليها، إذ لم يعد من حق الحكومة الاستئثار بالسلطة دون منازع أو رقيب .
- 2 - تحقق الأمن من إصدار السلطات العليا أوامر الضرائب دون مبرر حقيقي، وهو ما كان يعاني منه الفقراء، وسائر طبقات المجتمع .
- 3 - تراخي قبضة السلطة العليا على المواطنين، إذ توزعت تلك السلطة بين السلطة العليا وبين ممثلي الشعب في المجالس النيابية والبرلمانية، الذين يحاولون جاهدين إرضاء ناخبهم⁽⁹⁵⁾.

الفرع الثاني

الآثار السلبية عامةً

كما أن للحرية في النظام الديمقراطي جوانب إيجابية، فإن لها جوانب سلبية لا يمكن إنكارها، فالحرية السياسية التي دعت إليها الأنظمة الديمقراطية ليست بتلك الصورة الزاهية التي تبدو عليها لأول وهلة، إذ إن هناك قيوداً كبيرة تُفرض عليها بحجة وقاية

(94) صلاح الصاوي، التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، دار الإعلام الدولي، القاهرة، 1992، ص 1.
 (95) غالب علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، ط 1، الجزء 1، المكتبة العصرية الذهنية، جدة، 1427 هـ/2006، ص 765-766.

الأمن العام والنظام؛ وذلك لخدمة بعض أصحاب المصالح الكبرى من أرباب السياسة والمال، الذين صاروا يتحكمون بالصحافة ويؤثرون على القضاء ويملكون وسائل الإعلام ويوظفونها لتحقيق رغباتهم، فأصبحت الحرية ملكاً لهؤلاء الفئة القليلة المسيطرة⁽⁹⁶⁾. يقول الكاتب محمد البهي أن الحرية الفردية: «أصبح يمارسها على نطاق واسع أصحاب المال، وهم في الوقت نفسه رجال السياسة وهم أصحاب دور النشر والإعلام، ويمارسها- في نطاق ضيق أو قد لا يمارسها أصلاً حتى في حق العمل والسعي في الحياة - بقية الأفراد في المجتمع»⁽⁹⁷⁾.

ويمكننا تلخيص الآثار السلبية المترتبة على الحريات السياسية في النظام الديمقراطي والتي قد لا تبدو لمن نظر لهذا النظام نظرة متعمقة، فبداله لأول وهلة أن هذا النظام خلو من السلبيات، ومنها:

1 - بالنسبة لموقف السلطة وأصحاب الجاه والثراء، فقد اتضح أن هؤلاء عرفوا كيف يحتالون على الشعوب، ويوجهونهم لمصالحهم الخاصة قبل مصالح الشعوب الحقيقية، بحيث يوهمون الشعوب أنهم حصلوا على كل ما كانوا يطالبون به وكان الرابح الحقيقي هم من في السلطة.

2 - أما ما تحقق في ظل الديمقراطية من التشجيع على الفساد الأخلاقي تحت تسمية الحرية الشخصية، وما تحقق لهم من الدعوة إلى الإلحاد تحت تسمية حرية التعبير أو حرية الأديان، فإنه لا يعتبر مكسباً حقيقياً بل الصحيح أنه خسارة فادحة وإن سموه مكسباً، وهذا باعتراف عقلائهم .

3 - ما تنادي به الديمقراطية من المبادئ البراقة ينقضه أنها لم تحقق للناس الألفة والمحبة والتراحم الذي جاءت به الشريعة الإسلامية، فلا يزال السلب والنهب والاعتصاب وكثرة الجرائم هي السمة الظاهرة في الأنظمة التي تحكم بالديمقراطية.

4 - لم يتحقق في الديمقراطية تكريم الإنسان التكريم اللائق به، وإنما تكريمه يتم حسب الأمزجة ومن خلال اعتبارات كثيرة، بينما الإسلام يُكرّمه في كل أحواله سواء أكان فقيراً أم غنياً قبيحاً أم جميلاً، وهذا هو المكسب الحقيقي الذي يجب أن يعرض الإنسان عليه بالنواجذ، فإن الإسلام يكرم الإنسان حياً وميتاً.

5 - ما تمدح به الديمقراطية من أنها ضمنت للشعوب حق التعبير عن الرأي مهما كان،

(96) عبدالرحمن الزيندي وآخرون، الثقافة الإسلامية تخصصاً ومادةً وقسمًا علميًا، سلسلة مناهج وإصدارات العلوم الشرعية، د.ن، الرياض، 1417 هـ / 1996م، ص 89.

(97) محمد البهي، الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر - مشكلات الحكم والتوجيه، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت، ص 109.

فإنه قد اتضح من التاريخ الأوروبي أن هذا الاتجاه لم يتحقق بطريقة صحيحة، إذ إن أصحاب الجاه والحكم والثراء لا يزالون يفرضون سيطرتهم المباشرة أو غير المباشرة على رأي الجماهير⁽⁹⁸⁾.

6 - ومن الآثار السلبية للحرية في النظام الديمقراطي والتي أوردتها (د. إدوارد بنيش) في كتابه «هذه هي الديمقراطية» والتي أدت إلى تدهور هذا النظام، هو ما يتضمنه من أحزاب سياسية وتطرف حزبي، بحيث تتخذ هذه الأحزاب البرلمان مسرحاً لمنازعاتها، فإذا به سوق للمشاحنات والمناقشات التي لا تنتهي والتي لا تجدي نفعاً، والتي لا تبغي الأحزاب منها إلا خطب ود الجماهير للوصول إلى سدة البرلمان والتأثير فيها، وبذلك لا يتوصل البرلمان إلى اتخاذ قرار ما إلا بعد جهد شاق، وتنساق الحكومة المنبثقة عنه إلى مثل هذا العجز وتعاني منه ما تعاني، حتى إذا استطاعت الاتفاق مع البرلمان على قرار ما، جاء هذا القرار نتيجة لتسوية لا ترضي أحداً، أو ترضي مصلحة حزب من الأحزاب على حساب المصلحة العامة⁽⁹⁹⁾.

7 - ومن الآثار السلبية المترتبة على الحرية السياسية في النظام الديمقراطي ما أفرزه النظام من طرق للاعتراض على الدولة ورجالاتها والتي لم تكن معروفة في نظام الحكم الإسلامي، مثل المعارضة السياسية، التي هي اعتراض على سياسات الدولة، وما ينتج عنها من إضرابات واعتصامات ومظاهرات وثورات⁽¹⁰⁰⁾، ولا يخفى ما يترتب على هذه الأساليب من آثار سلبية على الفرد والمجتمع من ذهاب للأمن وإزهاق للأنفس وسلب للأموال وانتهاك للأعراض. بالإضافة إلى أن الحريات السياسية في النظام الديمقراطي قد ارتبطت بشكل وثيق بالحريات الأخرى، وأصبحت هذه الحريات مكوناً أساسياً للمجتمع الديمقراطي المتمتع بالحرية السياسية، مما نتج عنه آثار سلبية حتى في غير الميدان السياسي، نذكر بعضاً منها كمثلة:

أبرز الآثار السلبية للحرية على مستوى الأسرة التي هي اللبنة الأساسية للمجتمع:

إن الأسرة والحياة الزوجية والأطفال تعاني في الغرب الديمقراطي - وهي في خضم نزعة الاستقلالية والحرية باعتبارها أساساً للديمقراطية الغربية - معاناة كبيرة، فهناك تحولات كثيرة طرأت على علاقة الشريكين؛ نتيجة الفردية المتمادية التي تعيشها المجتمعات الغربية. ومن هذه التحولات، أن الشريكين اللذين يعيشان تحت سقف واحد،

(98) موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت. <https://dorar.net/>

(99) إدوارد بنيش، هذه هي الديمقراطية، ترجمة حسن صعب، دار العلم للملايين - بيروت، 7491، ص 77.

(100) إبراهيم بن محمد الحقييل، الاستدلال الخاطيء بالقرآن والسنة على قضايا الحرية: دراسة نقدية، ط 1، المجلد 1، دار البيان، الرياض، 1434 هـ/ 2014 م، ص 579.

سواء كان هذا العيش نتيجة زواج أو مساكنة، ينزعان إلى أن تكون لكل منهما حياته الخاصة التي لا يشاركه فيها الطرف الآخر، والمبرر في ذلك نبع من قناعة لديهما أن العيش تحت سقف واحد ينبغي ألا يقطع جناحي أحدهما، أو يطمس شخصيته، بل عليه أن يشكل فسحة لإغناء علاقتهما، والمحافظة على حريتهما؛ لذا فكل واحد منهما له عالمه الخاص الذي يعاشره بمعزل عن شريكه، وقد يحصل أن يكون للشريك معرفة بهذا العالم. والأثر الناتج من هذه النزعة تنعكس على الأسرة والأطفال، وبذلك ينزع فيها كل فرد من أفراد العائلة إلى أن يكون له عالمه الخاص في البيت. هذا كله أفضى إلى نظرة جديدة إلى الخيانة الزوجية؛ إذ تبين من خلال استطلاع أجري أخيراً أن ما يقارب 42% من الفرنسيين بإمكانهم إقامة علاقة مع شخصين في الوقت نفسه، و65% يفضلون عدم معرفة ما إذا كان شريكهم يخونهم⁽¹⁰¹⁾.

المطلب الثالث

معززات الحرية الثقافية

في ضوء ما تم عرضه، وما وصل إليه البحث من وجود أزمة تواجهها الهوية الثقافية العربية، فإن الأمر يتطلب ضرورة العمل على التوصل إلى حل لهذه المشكلة، وهذا الحل سيعتمد بصورة رئيسة على ما ستقوم به التربية من دور فاعل إزاء ذلك، وهذا ما يؤكد التاريخ من أهمية دور التربية، فهي السبيل الأساسي الذي يمكن أن تأخذ به المجتمعات من أجل حماية هويتهم الثقافية والتأكيد عليها، لأن «قيمة الإنسان هي حصاد معارفه، وحضارة المجتمع هي المحصلة الجامعة لمعارف أبنائه التي وهبتها إياهم التربية»⁽¹⁰²⁾، وحتى تصبح التربية قادرة على تحمل مسؤولية تأكيد هويتنا الثقافية لا بد أن يسهم مفكرون وعلماءنا التربويون في رسم استراتيجية علمية تؤهلها للصمود أمام هذه الهجمات الوافدة، وتقديم هذه الثقافة بهويتها العربية والإسلامية إلى شعوب العالم كحضارة رائدة.

وإذا كان تعزيز الهوية الثقافية هو مهمة مؤسسات وقطاعات متعددة، فإن هناك قطاعات بعينها لها دور أكبر، وفي مقدمة هذه القطاعات قطاع التعليم، الذي يمكنه القيام بدور كبير في مجال تعزيز الهوية الثقافية، حيث إن التعليم منوط به تربية النشء، وغرس القيم في عقولهم وقلوبهم منذ سنوات أعمارهم الأولى، فالتعليم يقوم بدور كبير في مجال دعم قيم الولاء والانتماء، والتأكيد على الثوابت القومية، وبالتالي له دوره الكبير

(101) نيف معروف، الديمقراطية في ميزان العقل والشرع، دار النفائس، بيروت، 2004، ص 163-168. مازن مطبقاني، الغرب من الداخل: دراسة للظواهر الاجتماعية، ط 2، الرياض، 1425 هـ/ 2005 م، ص 30.
(102) نبيل علي، الثقافة العربية في عصر المعلومات: رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 276، ديسمبر 2001، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 289.

في مجال تعزير الهوية الثقافية وترسيخ ثوابتها ودعائمها الأساسية. إذن سيعتمد هذا الحل على إستراتيجية تربوية، وهذه الإستراتيجية تعتمد على مبدئين أساسيين هما:

أن تسعى التربية إلى تأكيد الهوية العربية الإسلامية بثوابتها ومكوناتها وأبعادها المختلفة وتحسينها ضد محاولات السيطرة والهيمنة، وأن تؤكد كذلك على تعزير التفاعل الإيجابي مع معطيات الثقافات الأخرى، بحيث يقوم هذا التفاعل على الندية والتأثير المتبادل، والإفادة من عناصر التميز في ثقافة الآخر دون انبهار أو ذوبان⁽¹⁰³⁾. وستشمل هذه الإستراتيجية مجموعة من الخطوات، وكل خطوة سيكون لها مجموعة من الإجراءات والأليات، وهي:

أ. تعزير البناء القيمي والأخلاقي للفرد:

يعد بناء الفرد قيمياً وأخلاقياً من أهم الغايات التي لا بد أن تسعى التربية إلى تحقيقها، فالتاريخ يؤكد أن استنهاض الشعور الديني هو الطريق الرئيس للأمة: حتى يمكنها المشاركة في المشهد الحضاري العالمي المعاصر. ويرى الكاتب سعيد إسماعيل علي أن: «صياغة الشخصية السوية لا بد أن يستند إلى أساس ديني وعقائدي، من أجل بناء ذاتية تصغي إلى أوامر بارئها وتطبع أحكامه⁽¹⁰⁴⁾»، إذن فتربية الشخصية الإنسانية على أساس ديني وأخلاقي تظهر مقومات الهوية الثقافية، وبذلك يصبح دور التربية بمؤسساتها المختلفة مهماً في تنشئة الإنسان العابد بالمفهوم الواسع والشامل للعبودية، لأن العبادة تكاليف شرعية ومنهج حياة متكامل يتوازن فيها الأخذ والعطاء، فالتربية حين تنجح في بناء الإنسان العابد، حينئذ يكون هذا الإنسان هو القوة الفاعلة في دعم هويتنا الثقافية، وبناء مجتمع الحرية والعدل والكرامة الإنسانية⁽¹⁰⁵⁾.

وتقوم هذه المؤسسات بدورها من خلال تهيئة المناخ التربوي المناسب، والتأكيد على هذه القيم، بحيث تترجم عملياً في سلوكيات الناشئة، وتصير ضمن نسيج شخصياتهم، وقدرة هذه المؤسسات على التعامل مع متغيرات العصر بإيجابية ووعي وعقلانية، وهذا هو ما أشار إليه الكاتب عبد العليم مرسي حين ذكر أن وظيفة القيم تتمثل في كونها: «تساعد المجتمع بأفراده وجماعاته على التمسك بمبادئه الثابتة والمستقرة، وتساعد

(103) حمدي حسن عبد الحميد المحروقي، مرجع سابق، ص 182.

(104) سعيد إسماعيل علي، الخطاب التربوي الإسلامي، سلسلة كتاب الأمة، العدد 100، السنة 24، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2004، ص 35.

(105) محمد إبراهيم المنوفي وياسر مصطفى الجندي، مرجع سابق، ص 237.

على مواجهة المتغيرات، وتعمل على إعطاء النظم الاجتماعية أساساً عقلياً يصبح عقيدة في ذهن أعضاء المجتمع المنتمين إليه، وتقي المجتمع من الأنانية المفرطة، ومن النزعات والشهوات الطائشة، وتزوده بالصيغة التي يتعامل بها مع العالم، وتحدد له أهداف ومبررات وجوده، ومن ثم يسلك في ضوئها، كما أنها تعمل على إصلاح الفرد نفسياً وخلقياً، وضبط شهواته ومطامعه، كي لا تتغلب على عقله ووجدانه»⁽¹⁰⁶⁾.

ويمكن تعزيز البناء القيمي والأخلاقي من خلال مجموعة من الإجراءات والآليات والتي منها:

- التنشئة الدينية الصحيحة، وترسيخ التصور الإيماني للكون والحياة والإنسان.
- الاهتمام بالجوانب الروحية في تكوين الإنسان، خاصة في ظل العصر الذي تحكمه المادية بشكل كبير.
- اهتمام المناهج الدراسية وأنشطتها اليومية داخل الصف بتأصيل القيم الإسلامية⁽¹⁰⁷⁾.
- إسهام الأسرة بدور هام في التأكيد على القيم الداعمة للهوية الثقافية ومواجهة التداعيات السلبية للعولمة على أبنائهم.
- تحقيق الانسجام النفسي للارتقاء بالنفس إلى الطمأنينة؛ لتجنب الباطل والابتعاد عن الوقوع في الأخطاء التي قد يقع فيها المسلم من خلال الثقافات الوافدة.
- الاهتمام بالتربية الخلقية وبناء الشخصية المؤمنة التي تخلص الناس من الضلال في العقيدة والفساد في السلوك والأخلاق، ودعوتهم لأن يكونوا عابدين لله وحده.
- إيجاد بعض البرامج؛ لتدعيم القيم والأخلاقيات وتعزيزها، ويكون لها دور في التأكيد على الانتماء بحيث تكون نابعة من القيم الأصيلة المرتبطة بالعقيدة الراسخة وثقافتهم الوطنية.
- الاهتمام بالتربية الخلقية لابد أن يستند إلى المعايير الدينية والاجتماعية والثقافية، والمأخوذة من عقيدة المجتمع وثقافته.
- التركيز في برامج التعليم على مبادئ حقوق الإنسان وحقوق المرأة كإنسان، ومساواتها بالرجل في كثير من المجالات، فهذا هو ما نستخلصه من الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.
- لفت الانتباه إلى التمييز بين المواقع التي تدعو إلى تعاليم الدين الإسلامي وبين تلك التي ثبت أفكاراً هدامة ومسمومة تخالف تعاليم ديننا الحنيف، والتي تدعو

(106) محمد عبد العليم مرسي، مرجع سابق، ص 113 - 114.

(107) حمدي حسن عبد الحميد المحروقي، مرجع سابق، ص 184 - 192.

- إلى معاداة الآخر، وكذلك تلك التي تستميل الغرائز لدى الشباب للانزلاق بهم إلى الانحطاط والرذيلة، وكيفية مواجهتها ودحضها.
- إنشاء محطات فضائية دينية تعليمية متخصصة لنشر الوعي الديني والأخلاق، التي تمثل تعاليم الدين الإسلامي الصحيح.

ب. الإيمان بأهمية التواصل الحضاري:

وهذا يعني أهمية الحفاظ على الهوية الثقافية من خلال القدرة على التعامل بشكل إيجابي مع التعددية الفكرية والثقافية والعرقية والسياسية والاقتصادية، وذلك لأن التعددية مبدأ تربوي إسلامي، بل هي سنة من سنن الله في خلقه، ولذلك فإن تربية الفرد في ضوء هذه التعددية يمكن أن تنمي فيه روح التسامح ورفض التعصب، واحترام الآخر وقبول الاختلاف مع الغير⁽¹⁰⁸⁾، فالتنشئة السليمة تلزم الفرد التواصل وإقامة حوار مشترك مع الآخرين دون تردد.

ويمكن تحقيق التواصل الحضاري من خلال مجموعة من الإجراءات والآليات، ومنها:

- التأكيد على مفهوم وقيم المواطنة، والإفادة من برامج التربية، وذلك لتعزيز التفاهم والتعاون بين الشعوب على اختلافها، فهي أحد سبل مواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين، ويمكن تحقيق ذلك من خلال: العمل في مشروعات مشتركة، في ظل التعددية والحوار المتكافئ بين الثقافات، وفهم الإنسان لدوره في النظام العالمي وأنه أحد مكوناته، ويحتاج إلى جهوده ومشاركته الإيجابية، وإدراك الصورة الكلية للنظام العالمي بما يؤهله للحياة في مجتمع دولي، وتكوين التقدير واحترام التباين والاختلاف الثقافي بين الشعوب، بغض النظر عن الجنس واللون. وهذا هو ما أشارت إليه منظمة اليونسكو في تقريرها عن التربية في القرن الحادي والعشرين، والذي تم تعريبه بعنوان «التعلم ذلك الكنز الكامن»، حيث أشارت في هذا التقرير إلى مبدأ هام وهو «تعلم لتعيش الآخرين»⁽¹⁰⁹⁾.
- التأكيد على التنوع الثقافي والتعددية في محتوى المناهج وأنشطة التعليم والتعلم، والتزويد بمعلومات وتجارب وخبرات أصيلة عن الدول الأخرى بثقافاتها المتنوعة.
- استخدام شبكة الإنترنت المرتبطة بالعالم، مما يعطي فرصاً كبيرة للحوار وتبادل

(108) محمد إبراهيم عطوة مجاهد، بعض مخاطر العولمة التي تهدد الهوية الثقافية للمجتمع ودور التربية في مواجهتها، مجلة مستقبل التربية العربية، مجلد 7، ع 22، يوليو 2001، المركز العربي للتعليم والتنمية، القاهرة، ص 199.

(109) جاك ديبلور وآخرون، التعلم ذلك الكنز الكامن، تعريب: جابر عبد الحميد جابر، دار النهضة العربية، القاهرة، 1998، ص 7.

- المعلومات العلمية والثقافية مع مفكري وعلماء البلاد الأخرى.
- الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية إلى جوار اللغة العربية.
- إسهام وسائل الإعلام بالشراكة مع المؤسسات الأخرى للتربية في التحذير من القيم السلبية وثقافة الاستهلاك والهيمنة الفكرية.
- تنمية روح التسامح ورفض التعصب، واحترام الاختلاف مع الغير، وكيفية التعامل مع الاختلاف، فهذه القيم يمكن أن تساعد على التعامل بندية مع الحضارة الغربية من خلال قيم التنوع والتعدد.
- تنمية مهارات الاتصال والتفاهم مع الثقافات الأخرى من خلال إتقان بعض اللغات الأجنبية وإتقان مهارات التعامل مع التكنولوجيا المتقدمة.

ج - أهمية الجمع بين الأصالة والمعاصرة:

تعد قضية تأصيل الهوية الثقافية العربية من أهم القضايا التي لا بد أن تشغل بال المفكرين وكل من يهمهم أمر الشخصية العربية، خاصة في ظل التغيرات التي يعيشها المجتمع العالمي المعاصر، الأمر الذي جعل الشباب يعيش في حيرة من أمره، هل يسير مع الغرب؟ أم يتمسك بترائه وثقافته؟ وحتى يمكن تجاوز هذه الإشكالية كان لا بد من السعي لتأصيل الهوية الثقافية العربية، بحيث يكون لهذه الهوية سماتها الخاصة التي تميزها عن الهويات الأخرى، بالإضافة إلى الاهتمام بالحاضر والمستقبل. ولتحقيق ذلك لا بد أن يكون هناك تواصل بين التراث الماضي وبين ثقافة المجتمع المعاصرة، بحيث يكون هذا التراث معيناً في بناء الحاضر ورسم صورة المستقبل، وفق عملية انتقاء دقيقة، كما يقتضي ذلك أيضاً أن تعبر ثقافة المجتمع عن واقعها، وأن يتشبع التعليم بمقومات ثقافة المجتمع وشخصيته⁽¹¹⁰⁾، «فهذا التراث أغنى وأقدر على تقديم الحلول لكل مشاكلها من أي تراث آخر، مهما كان بريق هذا التراث الآخر»، كما أن هذا التراث هو الذي يساعدها على تحديد اتجاه التطور الذي تنشده، وهو في نفس الوقت دعامة قوية لهذه الثقافة⁽¹¹¹⁾.

- ويمكن تحقيق الأصالة والمعاصرة من خلال مجموعة من الآليات والإجراءات، من بينها:
- التشجيع على الدخول في عصر المعلومات والثورة المعرفية، وتنمية مهارات البحث عن المعرفة، بل واستيعابها.
 - تنمية مهارات التفكير، ودعم العقلانية، والتفكير الناقد.
 - التركيز على إكساب مهارات التعامل مع العصر.

(110) السيد عبد العزيز البهواشي، مرجع سابق، 256.

(111) السيد عبد العزيز البهواشي، مرجع سابق، ص 443.

- تقديم قراءة جديدة للتراث تتماشى مع متغيرات العصر بحيث يكون عاملاً من عوامل الإبداع.
- ترسيخ مشاعر الاعتزاز بالتراث العربي والإسلامي.
- تحويل دراسة التاريخ إلى دراسته كسجل حضاري تتناول حركة الإنسان في المجتمع بكل مجالاته، بحيث يشمل دراسة التجارب الثرية في تاريخ الأمم والشعوب المختلفة، فيصبح بذلك تاريخ أمة وثقافة وتاريخ إنسانية⁽¹¹²⁾.
- إعادة النظر في وضعية مقررات التربية الوطنية التي تعاني من تهميش وإهمال شديد بحيث تدخل في نطاق تقويم الطالب.
- لفت النظر إلى الجمال والفنيات التي يزخر بها التراث العربي والإسلامي، وإكساب مهارات تذوقها وتجديدها.
- ترسيخ الشعور الوطني في الوجدان والتأكيد على أهمية دراسة التاريخ القومي.
- أن يتيح المناخ المدرسي الفرصة لتدعيم الثقافة الوطنية دون الانغلاق عليها ودون الرفض لما هو جديد من حولنا من نتائج التطور المعرفي الذي قد يسهم في تطوير ثقافتنا، ويتفق مع عقيدتنا، ويعود بالنفع على الوطن، فنحتفظ بهويتنا الثقافية ونساير العصر في نفس الوقت.
- فتح حوارات حول أهم الرواد والأبطال الذين لهم إسهامات في مجالات مختلفة في قيم بعينها، ثم تشجيع وتأكيد هذه القيم من خلال مناخ ديمقراطي يسمح بممارسات فعلية لهذه القيم.
- تفعيل هياكل وسياسات التكامل الإقليمي بين الدول العربية والإسلامية بهدف تقليص التبعية للغرب، وإخفاء طابع القوة والغلبة على هذه الدول حتى تصبح ذات ثقل مؤثر في المجتمع العالمي وليس على هامشه⁽¹¹³⁾.
- أن يتميز المنهج بالأصالة والمعاصرة معاً دون أن يفقد هويته، وهذا يتطلب مراعاة بعض المرتكزات الأساسية عند بناء المنهج، منها الأخذ في الاعتبار أن المنهج يعكس للمجتمع ما يعتقدونه الناس، وما يشعرون ويفكرون ويمارسون، بالإضافة إلى مراعاة التغيرات التي تطرأ على المجتمع، فتجعل هناك ضرورة لإعادة بناء المناهج لتساير الواقع الاجتماعي، وتتماشى مع التغيرات العالمية.
- إعادة النظر في العادات والأفكار والمهارات الاجتماعية التي توارثتها الأجيال، بحيث تسير جنباً إلى جنب مع الأوضاع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الحديثة، التي

(112) حمدي حسن عبد الحميد المحروقي، مرجع سابق، ص 193.

(113) محمد إبراهيم عطوة مجاهد، مرجع سابق، ص 201.

حدثت بسبب التغيير المستمر في مختلف النواحي⁽¹¹⁴⁾.

د.بث روح العلم والإبداع:

إن العصر الذي نعيشه هو عصر العلم والمعرفة، ومن يمتلك المعرفة هو الذي سيتحكم في العالم ومصيره، الأمر الذي يؤكد على أنه لا مكان في هذا العالم للضعفاء والعاديين، وبالتالي فلا سبيل لسد الفجوة الحضارية بيننا وبين الغرب إلا بالتفوق في المجال العلمي والتقني، ونشر روح الإبداع، فتكون روح الإبداع هي المنطلق الأساس الذي تتكون من خلاله وفي إطاره سائر الغايات التربوية، التي يجب أن تنتظم عمل التربية، إذا ما أردنا الحفاظ على هويتنا الثقافية حية وفاعلة. وقد أشار الكاتب عبد الله عبد الدايم إلى أن: «من أضر القيم اللازمة لبناء الإنسان العربي هي: روح الخلق والإبداع، القدرة على التغيير والتغيير، الفكر الناقد، روح التسامح والتآلف ونبذ العصبية والتعصب، روح الانتظام والتنظيم، الروح العلمية، روح الحماسة والعمل، وروح تحدي الصعاب وإرادة التحدي»⁽¹¹⁵⁾.

وهكذا يمضي الإبداع إلى رؤى جديدة، وأفعال مغايرة سديدة نصنع من خلالها هويتنا وننميها كما نريدها نحن بإبداعاتنا، وليس كما يريد لنا غيرنا، وهو في الوقت نفسه خط الدفاع الثقافي الحصين في مواجهة ما قد يهددنا من تيارات ثقافية قد تكون متعارضة مع ثقافتنا.

ويمكن تحقيق ذلك من خلال مجموعة من الآليات والإجراءات، من بينها:

- تنشئة الأجيال الجديدة على الإيجابية بحيث يبحثون عن المعرفة واكتشاف الحقيقة، وإخضاع كل معارفهم للفحص والنقد.
- عدم الحجر على العقول حتى يكون هناك مجال لممارسة النقد والتخيل والإبداع.
- تنمية المهارات العقلية المتقدمة، وإدخال أنواع جديدة من البرامج في المناهج وخاصة في الرياضيات والعلوم وتكنولوجيا الحاسبات⁽¹¹⁶⁾.
- التعليم للإبداع بدلاً من الحفظ والاستظهار حتى يمكن تكوين مبدعين بدلاً من مجرد تخريج أنماط متماثلة من الأفراد، والاهتمام بالتعلم الذاتي والمستمر إلى جانب التعليم النظامي الموجود، وتطوير المناهج والمقررات الدراسية، بحيث لم يعد

(114) كوثر جميل سالم بلجون، مبررات التفكير في منهج تربوي معاصر في ظل الهوية الثقافية، مؤتمر مناهج التعليم والهوية الثقافية، المجلد 2، ص 812.

(115) عبد الله عبد الدايم، مراجعة إستراتيجية تطوير التربية العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1995، ص 166.

(116) حمدي حسن عبد الحميد المحروقي، مرجع سابق، ص 187.

- التركيز على الكم الهائل من المعلومات أمراً مناسباً في ظل الثورة المعلوماتية، إذ لم يعد المنهج الثابت والمحدد مناسباً لهذا العصر، بل صار الأمر يتطلب إكساب الطلبة مهارات الحصول على المعرفة بأنفسهم.
- التأكيد على عدم التعارض بين القيم الدينية والأخلاقية وبين العلم الذي يستند إلى العقل والتجريب، فالإسلام يرى أن العلم وتطبيقاته من الضرورات الحياتية اللازمة للإنسان.
 - وفي هذا الإطار، نعرض تصوراً لأحد الباحثين هو حامد عمار لتطوير تعليم المستقبل يتمثل في أربعة أبعاد وهي:
 - الأفقي: حيث يتاح التعليم للجميع، صغاراً وكباراً، بحيث تنتشر المعرفة ويتم القضاء على الأمية.
 - البعد الرأسي: حيث تتاح فرص التعليم لأطول فترة ممكنة من السنوات بعد مدة التعليم الأساسي، بما في ذلك توفير فرص التعليم والتدريب لقوة العمل، بحيث يتعلم الفرد كيف يعلم نفسه في عالم متغير.
 - بعد العمق في العملية التعليمية: ويرتبط بالتطوير الكيفي لمناهج التعليم لتحقيق تعلم فاعل ينمي التفكير، ويرعى الموهبة ويدعم الإبداع.
 - البعد الاجتماعي الثقافي: بحيث يكون التعليم عاملاً أساسياً في تأكيد الذاتية الثقافية للمجتمع⁽¹¹⁷⁾.
 - التأكيد على قيم العلم ومنجزاته، مما يكفل الرغبة والإفادة من المنجزات التقنية، وأهمية ذلك للفرد والمجتمع على حد سواء.
 - إعادة النظر في سياسة إعداد المعلم بما يحقق الارتقاء بمستواه الأكاديمي والمهني والثقافي والأخلاقي، بحيث يستطيع أن يكون عاملاً هاماً في المساعدة على الإبداع.
 - أن يأخذ التعليم العربي بالتربية المستقبلية لمواجهة التحديات المعاصرة، بحيث تكون تربية حوارية لا تلقينية، وتربية تقنية لا يدوية، وتربية تعاونية لا فردية، وتربية تكاملية منظومية لا جزئية ضيقة، وتربية توقعية لا عشوائية.

هـ . النهوض باللغة العربية:

إن اللغة العربية تعد من أبرز مظاهر الثقافة العربية، وأزمة اللغة المعاصرة هي أزمة

(117) حامد عمار، نحو تعليم المستقبل، مجلة العربي، العدد 494، يناير 2000، وزارة الإعلام، الكويت، ص 53-55.

الهوية الثقافية في الوقت ذاته، فاللغة هي أداة التعلم والتفكير، كما أنها تمثل ذاكرة الأمة، وهي أداة الاتصال الاجتماعي، ولهذا كله فاللغة العربية تعد من أكثر الميادين أهمية، ففيها الخصوصية القومية والوحدة الثقافية، والتراث والاستمرارية الثقافية، وحيوية الفكر العلمي والإبداع الأدبي والمعتقد الديني⁽¹¹⁸⁾، ولذلك فاللغة العربية هي الهوية بحق «فهي أداؤنا لكي نصنع المجتمع واقعاً، وثقافة كل أمة كامنة في لغتها ومعجمها، واللغة العربية هي أكثر لغات العالم ارتباطاً بالهوية، وهي اللغة الوحيدة التي صمدت 17 قرناً سجلاً أميناً لحضارة أمتنا في ازدهار، وشاهداً على إبداع أبنائها⁽¹¹⁹⁾». لذلك لا بد من الاهتمام باللغة العربية، فالمسلمون الأوائل حققوا أعظم المآثر في القرون الوسطى، وأضافوا كثيراً للعلم، وكانت العربية هي لغة هذا العلم وتلك الحضارة، فلقد كتبت بها المؤلفات القيمة، غزيرة المادة، شديدة الأصالة، وكان على أي باحث يريد أن يلم بثقافة العصر أن يتعلم اللغة العربية، وقد فعل ذلك كثيرون من غير العرب⁽¹²⁰⁾.

ومن متطلبات النهوض باللغة العربية توجيه معلمي اللغة لأهمية الحديث والتدريس باللغة العربية الفصحى، وتعويد تلاميذهم على التحدث بها، مع تبصيرهم بأخطائهم في أعمالهم التحريرية ومتابعة التصويب لهم، فالمعركة الحقيقية لا تكمن في مواجهة تعليم اللغات الأجنبية، بل ينبغي أن تكون تلك المعركة ضد العوامل التي تضعف من شأن اللغة القومية، وليس هذا معناه تجاهل اللغات الأجنبية أو مقاومة تعليمها، ولكن يكون تعلم الفرد للغة أجنبية بعد تمكنه من لغته القومية⁽¹²¹⁾. وقد أدركت دول العالم خطورة تسلل اللغات الأجنبية إلى ثقافتهم، ولم يقتصر ذلك على الدول النامية بل عبرت بعض الدول المتقدمة عن قلقها إزاء ذلك، ففي فرنسا هناك إجماع على اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بحماية اللغة والثقافة الفرنسيين من التأثير الأمريكي، ومنها إصدار قانون يلزم محطات البث التلفزيونية بآلا تزيد نسبة البرامج الأجنبية من إجمالي البث عن 30%، وفي اتفاقية التبادل التجاري الحر بين أمريكا وكندا، فرضت الحكومة الكندية على الإدارة الأمريكية استثناء كل الصناعات الثقافية والإعلامية من الاتفاق المذكور⁽¹²²⁾.

(118) عبد السلام المسدي، الخطاب العربي وكونية الثقافة، مجلة سطور، عدد فبراير 1999، دار سطور، القاهرة، ص 40.

(119) نبيل علي، استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التعريف بالهوية العربية وإثرائها والتحدي الإسرائيلي المعلوماتي، المجلة العربية للتربية، عدد 46، مارس 2005، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ص 7-14.

(120) السيد عبد العزيز البهواشي، مرجع سابق، ص 445.

(121) السيد عبد العزيز البهواشي، مرجع سابق، ص 255.

(122) سمير حسن و رسلان خضور، مستقبل العولمة، المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، سلسلة قضايا راهنة، العدد 6، سنة 1998، دمشق، ص 18.

وقد أدركت اليونيسكو خطورة ذلك، فأهابت بالدول الأعضاء وبالأمانة العامة التشجيع على المحافظة على جميع اللغات التي تستخدمها شعوب العالم وحمايتها، فأعلنت أن عام 2008 م سنة دولية للغات، عملاً بالقرار الذي اتخذته المؤتمر العام للمنظمة في دورته الثالثة والثلاثين في 20/10/2005 م⁽¹²³⁾. وإذا كانت هذه الدول تعبر عن قلقها من غزو الإنجليزية بثقافتها لبلادهم، فإن الأمر بالنسبة لنا يتطلب منا بذل مزيد من الجهد للحفاظ على لغتنا العربية ضد الهجمة التي تتعرض لها سواء من الداخل أو الخارج، وأن تتحول هذه الجهود إلى أفعال، والتخلص من الأقوال، بحيث تتحول هذه الجهود إلى طاقة عمل أوسع.

(123) الأمم المتحدة، الجمعية العامة، الدورة 61، البند 114 من جدول الأعمال، قرار اتخذته الجمعية العامة دون الإحالة إلى لجنة رئيسية، 8 يناير 2007 م.
<http://daccessdds.un.org/doc/UNDOC/GEN/NO631/510//PDF/NO65031/.pdf?openELMEMENT>

الخاتمة:

وفي ختام هذا الموضوع اتضح لنا إنَّ الحرية قرينة الإبداع والخلق، ولعل مؤشر قمع الحرية داخل المجتمع يكون سبباً واضحاً في تكييف الإبداع بكل مجالاته سواء قبل ممارسته أو بعدها مباشرة، بمعنى أنَّ المبدع عندما يعرف بحكم خبرته ومعرفته وتجربته الخاصة أنَّ إبداعه وعمله سوف يلاقي منعاً ما أو موقفاً معادياً، فإنَّه يمارس على نفسه نوعاً من الرقابة الذاتية ويمنع نفسه من ممارسة حريته الكاملة في إبداع يتأثر بمؤشر القمع والمنع فيخرج ناقصاً وضعيف البنية. ولذلك فإننا نجد في بعض المجتمعات انتشار مؤشرات القمع والمنع والحظر والمصادرة في التعاطي مع الإبداع بكل تجلياته.

أبرز نتائج البحث:

- من خلال هذا البحث خرجنا بعددٍ من النتائج على النحو التالي:
- إن المفهوم الصحيح للحرية في الثقافة الإسلامية هو باختصار التحرر من العبودية لغير الله، وإفراد الله وحده بالعبودية والاتباع.
 - الحرية منحة إلهية وهبة فطرية جبل الله عليها الإنسان منذ اللحظة الأولى لولادته، وهي أصل من أصول الإسلام ومقتضيات الإيمان.
 - منح الإسلام الحرية لأفراد المجتمع الإسلامي بإقرارها منهجاً وسببياً يسلكه بتبليغها كرسالة إلهية على يد رسله وتطبيقها في الحياة وتوضيحها.
 - تحرير الإنسان من سلطة غير الله سبحانه وتعالى، وإخلاص عبوديته المطلقة سبحانه وتعالى أعلى مراتب الحرية، فقد يكون الإنسان حراً في الظاهر لكنه عبد مملوك لغيره.
 - المقصود بالرأي هو: الاعتقاد في الأمر بالظن الغالب كنتيجة للنظر والتفكير، فيما يتوصل إليه العقل بعد تفكير وتأمل، وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأدلة.
 - حرية التعبير هي الثمرة المنطقية التي ينتجها الفكر السليم، لأن حرية التفكير لا تعني شيئاً ما لم يصاحبها حرية التعبير.
 - الإشارة إلى أهمية الهوية في تشكيل الشخصية الفردية والمجتمعية، ولا تكتمل الهوية الثقافية ولا تبرز خصوصيتها، ولا تغدو هوية ممثلة قادرة على نشدان العالمية إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن «الجغرافية والتاريخ»، الدولة «التجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة»، والأمة

- «النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة»⁽¹²⁴⁾.
- الضوابط الشرعية لحرية الرأي ليست قيوداً أو موانع، وإنما هي معايير ضرورية لإبداء الرأي، فمنع الإنسان من حرية الرأي على وجه يسيء إلى الآخرين يُعدُّ منعاً من الاعتداء، وليس منعاً من الحق.
 - ينبغي أن تكون حرية الرأي في إطار منظومة القيم الأخلاقية، بما يجعلها طاقة تحفظ للمجتمع استقراره، فنهي الإسلام عن إبداء الرأي الذي يؤدي إلى إشاعة الفاحشة بين الناس، ويحصل لهم الأذى بسببه، وهذا ما يعرف بـ«سد الذرائع»..
 - من الضوابط الأسلوبية في طريقة عرض الرأي أن يبتعد عن التعصب، لأنه يدل على التحجر وضيق الأفق، ويدفع الطرف الآخر للمكابرة والمعادنة.
 - أصبحت الهوية الثقافية المحور الرئيس للأمم والشعوب، فقد انفجرت صراعات عرقية وثقافية في شتى أنحاء العالم تبيد وتدمر وتقتلع جذوراً كانت راسخة في كثير من الدول مثل دول البلقان والصومال ورواندا، حيث عمليات الإبادة الجماعية على أشدها وعلى نحو غير مسبوق.
 - التعليم يشكل حجر الزاوية في تشكيل الهوية الثقافية وفي تعزيزها والحفاظ عليها لكل شعب من الشعوب.
 - إن من أبرز الدوافع نحو تأكيد الهوية الوطنية والعربية والإسلامية هو ما يشهده عالم اليوم المتغير في كثير من أحداثه، والمتمثل في الانفتاح والنمو والتقدم التكنولوجي الذي ربما يكون له تأثيراته على الهوية الثقافية للمجتمع.

أبرز التوصيات:

- أوصي ببذل الجهود العلمية لتنزيه الإسلام عن مفاهيم الثقافة المعاصرة التي يتبرأ منها وحي الله، ويتنزه عنها، وأن يكفوا عن السعي للمقاربة والتوفيق بين المفاهيم الإسلامية والليبرالية، وأن يعلموا أن وحي الله عظيم رفيع مقدس. وقد نهانا الله في محكم تنزيله عن اللبس بين الحق والباطل. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ [البقرة: 42]، كما علمهم أن يكتفوا باستنباط المفاهيم الإسلامية من نصوص الوحي القرآنية والسنية⁽¹²⁵⁾.
- غرس القيم في عقول النشء وقلوبهم منذ سنوات أعمارهم الأولى، فالتعليم يقوم

(124) محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، العدد 228، فبراير 1998م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 14-22.

(125) عبدالرحمن إبراهيم الفكي، الحرية بين الثقافة الإسلامية والفلسفة الليبرالية، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 16، رمضان 1431هـ/ أغسطس 2010 م، جامعة إفريقيا العالمية، السودان، ص 247.

بدور كبير في مجال دعم قيم الولاء والانتماء، والتأكيد على الثوابت القومية، وبالتالي له دوره الكبير في مجال تعزيز الهوية الثقافية وترسيخ ثوابتها ودعائمها الأساسية.

- إيجاد بعض المقررات التي يدرسها الطلاب؛ لتدعيم القيم والأخلاقيات وتعزيزها، ويكون لها دور في التأكيد على الانتماء لدى الطلاب، بحيث تكون نابعة من القيم الأصيلة المرتبطة بعقيدتهم الراسخة وثقافتهم الوطنية.
- ينبغي لصاحب الرأي البعد عن المبالغة والتهويل في عرض الآراء، والتحرر من العوامل الذاتية والخارجية في إبداء الرأي، والالتزام بالصدق والعدل، وبهذا يتصف رأيه بالموسوعية والإنصاف.
- ينبغي أن تكون حرية الرأي في إطار منظومة القيم الأخلاقية، بما يجعلها طاقة تحفظ للمجتمع استقراره، فنهي الإسلام عن إبداء الرأي الذي يؤدي إلى إشاعة الفاحشة بين الناس، ويحصل لهم الأذى بسببه، وهذا ما يعرف بـ«سد الذرائع».

المراجع:

- أبو بكر رفيق، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية للعالم الإسلامي، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 27-30 مارس 2007، القاهرة.
- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1410هـ / 1990 م.
- إبراهيم بن محمد الحقييل، الاستدلال الخاطيء بالقرآن والسنة على قضايا الحرية: دراسة نقدية، ط 1، المجلد 1، دار البيان، الرياض، 1434 هـ/ 2014 م.
- إدوارد بنيش، هذه هي الديمقراطية، ترجمة حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت، 1947 م.
- إسماعيل الفقي، إدراك طلاب الجامعة لمفهوم العولمة وعلاقته بالهوية والانتماء، بحث مقدم إلى المؤتمر القومي السنوي الحادي والعشرين للجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس (العولمة ومناهج التعليم)، القاهرة، ديسمبر 1999.
- إسماعيل بن عمر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي السلامة، دار طيبة، مكة المكرمة، 1420 هـ / 1999 م.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الخطة الشاملة للثقافة العربية، ط 2، إدارة الثقافة، تونس.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004 م.
- برهان غليون، اغتيال العقل، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990.
- جاك ديلور وآخرون، التعلم ذلك الكنز الكامن، تعريب: جابر عبد الحميد جابر، دار النهضة العربية، القاهرة، 1998 م.
- جورج قرم، مشكلة الهوية والانتماء القومي عند العرب، مجلة العربي، العدد 537، أغسطس 2003، مطبعة وزارة الإعلام، الكويت.
- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، جامع المسانيد والمراسيل، دار الفكر، دمشق، 1994 م.
- ديفيد روتكوف، في مديح الإمبريالية الثقافية، ترجمة: أحمد خضير، مجلة الثقافة العالمية، العدد 85، نوفمبر - ديسمبر 1997، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- هاني محمد يونس موسى، دور التربية في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع العربي، بحث غير منشور، كلية التربية، جامعة بنها، مصر، د.ت.

- حامد عمار، نحو تعليم المستقبل، مجلة العربي ، العدد 494، يناير 2000، وزارة الإعلام، الكويت.
- حمدي حسن المحروقي، دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية، مجلة دراسات في التعليم الجامعي ، العدد 7، أكتوبر 2004، مركز تطوير التعليم الجامعي بجامعة عين شمس، القاهرة.
- كوثر جميل سالم بلجون، مبررات التفكير في منهج تربوي معاصر في ظل الهوية الثقافية، المؤتمر القومي السنوي الحادي والعشرون للجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس (العولمة ومناهج التعليم)، القاهرة، ديسمبر 1999، مجلد2.
- لؤلؤة القويﻟي، حرية التفكير والاعتقاد في المجتمع المسلم.
- مازن مطبقاني، الغرب من الداخل: دراسة للظواهر الاجتماعية، ط 2، الرياض، 1425 هـ/ 2005 م.
- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، 2000.
- مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2005 م.
- محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ط 1، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1996.
- محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- محمد أحمد إسماعيل، برنامج مقترح لتفعيل دور أنشطة نادي الطفل لتأصيل الهوية الثقافية لمواجهة التحديات الحضارية بمراكز إعلام محافظة قناة السويس، مجلة كلية تربية عين شمس، العدد 30، الجزء 3، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006.
- محمد إبراهيم المنوفي وياسر مصطفى الجندي، التربية وتنمية الهوية الثقافية في ضوء العولمة، مجلة كلية التربية بدمياط، جامعة المنصورة، العدد 43، سنة 2003.
- محمد إبراهيم عطوة مجاهد، بعض مخاطر العولمة التي تهدد الهوية الثقافية للمجتمع ودور التربية في مواجهتها، مجلة مستقبل التربية العربية، مجلد 7، العدد 22، يوليو 2001، المركز العربي للتعليم والتنمية، القاهرة.
- محمد إبراهيم عيد، الهوية الثقافية العربية في عالم متغير، مجلة الطفولة والتنمية، مجلد 1، العدد 3، سنة 2001، المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة.

- محمد بن أحمد الأنصاري أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المحقق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1427 - 2006
- محمد البهي، الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر - مشكلات الحكم والتوجيه، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.
- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط 1، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006.
- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط 1، دار طوق النجاة، 1422هـ/ 2001.
- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، الرياض، 1434هـ/ 2013 م.
- محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب من القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ/ 1999 م.
- محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، ط 9، دار الرسالة، مكة المكرمة، 1413هـ/ 1993 م.
- محمد حسنين هيكل، العرب على أعتاب القرن 21، مجلة المستقبل العربي، العدد 12، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، العدد 228، فبراير 1998م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- محمد عبد العليم مرسي، في الأصول الإسلامية للتربية، ج 1، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، 2000.
- محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، سلسلة «في التنوير الإسلامي»، العدد 32، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ط 9، دار الشروق، القاهرة، 2001.
- محمد شاكر الشريف، حقيقة الديمقراطية، منشور بنظام (بي دي اف) على موقع: <http://www.saaid.net/Doat/alsharef/k5.pdf>
- محمود أمين العالم، الهوية مفهوم في طور التشكيل، مؤتمر «العولمة والهوية الثقافية»، 12 - 16 أبريل 1998م، سلسلة أبحاث المؤتمرات رقم 7، المجلس الأعلى

- للتقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسن النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلف، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- نادية بنت سالم بن سعد الدوسري، بعض مسؤوليات المدرسة الثانوية تجاه تعزيز الهوية الثقافية لطلابها، مؤتمر «مناهج التعليم والهوية الثقافية».
- ناصر بن سعيد السيف، الهوية والثقافة، منشور على موقع:
[/www.alukah.net/authors/view/home/6875](http://www.alukah.net/authors/view/home/6875)
- نبيل علي:
- الثقافة العربية في عصر المعلومات: رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 276، ديسمبر 2001، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
 - استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التعريف بالهوية العربية وإثرائها والتحدي الإسرائيلي المعلوماتي، المجلة العربية للتربية، العدد 46، مارس 2005م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.
 - نجيب محمود زكي، ثقافتنا في مواجهة العصر، ط 3، دار الشروق، القاهرة، 1982.
 - نيف معروف، الديمقراطية في ميزان العقل والشرع، دار النفائس، بيروت، 2004.
 - سمير عبد الوهاب الخويت، طفل واحد وثقافات متعددة: أثر وسائل الإعلام والعمالة الأجنبية على ثقافة الطفل الخليجي - دراسة تحليلية ميدانية، مجلة التربية، المجلد 3، العدد 1، يونيو 2000، الجمعية المصرية للتربية المقارنة والإدارة التعليمية، القاهرة.
 - سمير حسن و رسلان خضور، مستقبل العولمة، المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، سلسلة قضايا راهنة، العدد 6، السنة 1998م، دمشق.
 - سعيد إسماعيل علي:
 - ثقافة البعد الواحد، عالم الكتب، القاهرة، 2003.
 - رؤية سياسية للتعليم، عالم الكتب، القاهرة، 1999.
 - الخطاب التربوي الإسلامي، سلسلة كتاب الأمة، العدد 100، السنة 24، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 2004.
 - التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين، المؤتمر التربوي الأول

- كلية التربية والعلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس بعنوان «اتجاهات التربية وتحديات المستقبل»، 7 - 10 ديسمبر 1997.
- عادل شيهب، الثقافة والهوية: إشكالية المفاهيم والعلاقة، جامعة جيجل، الجزائر، ص 4. منشور على موقع: <http://www.aranthropos.com>
- عباس محمود العقاد، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
- عبد الإله بلقزيز، العولمة والهوية الثقافية: عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- عبد الله عبد الدايم، مراجعة إستراتيجية تطوير التربية العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1995.
- عبد الودود مكرم، قيم هوية وثقافة الإنماء: مدخل لتحديد دور التعليم العالي في بناء مستقبل الأمة العربية، المؤتمر العلمي العشرون «مناهج التعليم والهوية الثقافية»، 30 - 31 يوليو 2008 جامعة عين شمس، مجلد 4، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس.
- عبد الحسين شعبان، ثقافة حقوق الإنسان، ط1، رابطة كاوا للثقافة الكردية، بيروت، 1421هـ/2001م.
- عبد العزيز البهواشي:
- التعليم وإشكالية الهوية الثقافية في ظل العولمة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
 - دور التربية الإسلامية في تنمية الشخصية القومية المصرية لمواجهة مخاطر اللانظام العالمي اللاحق، المؤتمر السنوي الثامن للجمعية المصرية للتربية المقارنة والإدارة التعليمية بالاشتراك مع مركز تطوير التعليم الجامعي «التربية والتعددية الثقافية مع مطلع الألفية الثالثة»، 29 يناير 2000م.
- عبد الحليم أحمد المهدي، شتات مجتمعات في التربية والتنمية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2003.
- عبد الحميد الصيد الزنتالي، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1993.
- عبد السلام المسدي، الخطاب العربي وكونية الثقافة، مجلة سطور، فبراير 1999، دار سطور، القاهرة.

- عبد الفتاح القاضي، الوافي في شرح الشاطبية، ط 4، دار السلام، القاهرة، 1427هـ/2006م.
- عبدالرحمن إبراهيم الفكي، الحرية بين الثقافة الإسلامية والفلسفة الليبرالية، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 16، رمضان 1431هـ/أغسطس 2010م، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم.
- عبدالرحمن الزنيدي:
 - الثقافة الإسلامية، ضمن سلسلة مناهج وإصدارات العلوم الشرعية، منشور على موقع: <http://www.alukah.net/library/0/41005/>
 - المثقف العربي بين العصرية والإسلامية ومقومات الفاعلية الثقافية للمثقف المسلم، دار كنوز إشبيليا، الرياض، 1430هـ/2009.
- عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1420هـ/2000م.
- عبد الرحمن عمر الماحي، العولمة واستلاب الهوية الثقافية للمسلم، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 27-30 مارس 2007.
- عطية إسماعيل أبو الشيخ، الهوية الثقافية في الفكر التربوي العربي وتحديات العولمة، مؤتمر «مناهج التعليم والهوية الثقافية».
- علاء بكر، مذاهب فكرية في الميزان، دار العقيدة، القاهرة، د.ت.
- علوي بن عبدالقادر السقاف ومجموعة من الباحثين، موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، موقع الدرر السنية على الإنترنت [/https://www.dorar.net/](https://www.dorar.net/)
- علي قرني، دور الإعلام في بلورة اتجاهات التغيير في قواعد السياسة الدولية في عصر المعلومات، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان-الأردن.
- فوزية العشماوي، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية (اللغة والتعليم، والتاريخ)، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 27-30 مارس 2007.
- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط 4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1422هـ/2001م.
- صلاح الصاوي، التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، دار الإعلام الدولي،

- القاهرة، 1992.
- صفاء محمد محمود، تصور مقترح لمقرر اللغة العربية لغير المتخصصين في تدريسها في ضوء أبعاد الهوية في نظرية «فيرث» اللغوية، مؤتمر «مناهج التعليم والهوية الثقافية».
 - رحيل محمد غرايبة، الحقوق والحريات السياسية في الشريعة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي والمنار للنشر والتوزيع، الطبعة 1، عمان-الأردن، 1421هـ/2000م.
 - رفيق حبيب، مصر القادمة بين التغريب والتفكير، دار الشروق، القاهرة، 1998.
 - رسالة المدير العام لليونسكو «كويشيرو ماتسورا» بمناسبة الاحتفال بالسنة الدولية للغات 2008، متاح على موقع اليونسكو: <http://www.un.org/arabic/events/iy>
 - رشدي أحمد طعيمة:
 - الثقافة العربية الإسلامية بين التأليف والتدريس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.
 - مناهج اللغة العربية في مجتمع المعرفة، المجلة العربية للتربية، يونيو 2005م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.
 - رؤى إسلامية معاصرة، نخبة من الكتاب، كتاب العربي، الكتاب الخامس والأربعون، طبعة أولى، 15 يوليو 2001م، تقديم د. محمد سليم العوا، مطبعة وزارة الإعلام، الكويت.
 - شريف دولار، تنافسية مصر في إطار النظام التكنولوجي الجديد، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، 1996.
 - غالب علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، ط 1، الجزء 1، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، 1427هـ/2006م.

المحتوى:

الصفحة	الموضوع
123	الملمخص
125	المقدمة
128	المبحث الأول- مفاهيم الهوية الثقافية ومقومات الهوية
128	المطلب الأول- مفاهيم الهوية الثقافية ومقوماتها
133	الفرع الأول- مفاهيم الهوية الثقافية
137	الفرع الثاني- مقومات الهوية الثقافية في المجتمع العربي
142	المطلب الثاني- العوامل التي أدت إلى أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي
142	المطلب الثالث- مظاهر أزمة الهوية الثقافية وملاحها في المجتمع العربي
143	الفرع الأول- ملامح الهوية الثقافية العربية
144	الفرع الثاني- العلاقة بين الهوية والثقافة
145	المبحث الثاني- الحرية الثقافية
145	المطلب الأول- مفهوم الحرية وجوهرها وضوابطها
146	الفرع الأول- تعريف الحرية لغة
146	الفرع الثاني- تعريف الحرية اصطلاحاً
147	الفرع الثالث- مفهوم الحرية عند المسلمين
149	الفرع الرابع- مصطلح الحرية في الثقافة الإسلامية
151	الفرع الخامس - مصطلح الحرية في الثقافة الليبرالية الغربية المعاصرة
163	المطلب الثاني- آثار وثمار حرية الرأي على الأفراد والأمم
163	الفرع الأول- الآثار الإيجابية
165	الفرع الثاني- الآثار السلبية عامة
167	المطلب الثالث- معززات الحرية الثقافية
175	الخاتمة
180	المراجع

